من يافا الى عمان
مع المحبة

روضة الفرخ الهدهد

من يافا الى عمان
مع المحبة

سيرة ورؤية

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/٣/١٤١٥)

من يافا الى عمان مع المحبة... روضة الفرخ الهدهد

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة العربية الأولى - ٢٠١٤

ISPN ٩٧٨-٩٩٥٧-٥٣٠-٥١-٨ (ردمك)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

أمانة عمّان الكبرى
مديرية الثقافة

تصميم وإخراج: كمال قاسم

تنفيذ الطباعة

شركة دار البيروني للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - وسط البلد - شارع السلط - بناية رقم (٢٣)
ص.ب: ١٨٢٢١٢ عمان ١١١١٨ - تليفاكس: ٩٦٢٦٤٦٥١٠٠٤+
Email:beyrouni.publisher@gmail.com

البيروني
ناشرون • موزعون
BEYROUNI
PUBLISHERS
&DISTRIBUTORS

الفهرس

الموضوع	الصفحة
هذا الكتاب	٧
ما يشبه التقديم	٩
بسم الله الرحمن الرحيم	١١
وفاة أبي	١٥
مدرسة بنات رام الله الثانوية	٢٣
المعلمة القدوة	٢٧
الأبواب المفتوحة	٣٣
مع دير ياسين.. وهند الحسيني	٣٥
اختفاء أمي	٣٩
في القاهرة	٤١
الساعات الست	٤٥
جمال عبد الناصر	٥١
الاعتراف بالقسمة والنصيب	٥٣
الخلية الحزبية تنشط من جديد	٦١
سميحة خليل/ سنديانة فلسطين	٦٥
الحقـوق	٦٧
في العقبة	٧١
الكتابة للأطفال	٧٣

مع الدكتور احسان عباس	٨١
في العمل التطوعي	٨٣
الحـــب	٨٩
سنوات الحزن	٩٣
أختي افتخار	١٠١
أختي رضا	١٠٣
في الجهود المسرحية	١٠٧
جائزة الدولة التقديرية في أدب الطفل	١١١
جائزة خليل السكاكيني لأدب الطفل وثقافته..	١١٥
في الجانب الاقتصادي	١١٧
في إيران...	١١٩
رحلة الحج	١٢٣
مع أختيّ إزدهار وانتصار	١٢٧
مع أخويّ خليل ومحمود	١٣١
رابطة الكتاب الأردنيين	١٣٥
مع مؤسسة عبد الحميد شومان	١٣٩
مؤسسة نور الحسين	١٤٣
الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال	١٤٣
الانتخابات النيابية	١٤٧
الموسيقى	١٥١
مشروع التوأمة مدرسة المنهل ومدرسة القسطينة نموذجاً	١٥٥
الأبناء والأحفاد	١٥٩
زيارة البلاد	١٦١
ملحق الصور	١٧١

هذا الكتاب

هذا الكتاب هو الجزء الثاني للسيرة الذاتية التي بدأتها بعنوان: اليافاوية . سيرة ذاتية (١) ويقرآن معاً..

فالجزء الأول يبيّن رحيلي مع عائلتي من يافا إلى عمان وهو ما كوّن اللبنات الأولى في فكري وعقلي ، حيث أن شخصية المرء تبدأ في التبلور من السنوات الخمس الأولى في عمره ..

والجزء الثاني ؛ بدءاً من المرحلة الدراسية الابتدائية وإلى اليوم .. وكيف أثرت هذه المرحلة مباشرة في انتاجي الأدبي والفكري والعملي .

آمل أن يضيء هذان الجزءان حقبة زمنية معينة في تاريخ هذه الأمة من خلال تجربتي الشخصية المتواضعة في عالمٍ تمور فيه الأحداث وتتلاطم فيه الأفكار ...

والشكر موصول لكل من قرأ الجزء الأول وأثنى عليه ..

كما الشكر موصول لمن قرأ مسودة هذا الكتاب . الجزء الثاني . وعلّق عليه : الأخوة والأخوات من عائلتي الخاصة أو من عائلتي الأدبية ، وعلق عليه بالحذف أو المطالبة بالإفاضة والزيادة ، وأخص بالذكر

الأخوة: محمد المشايخ وسحر ملص ومحمد سلام جميعان ، وطاهر قليوبي .

والشكر الخاص للدائرة الثقافية في أمانة عمان الكبرى لقيامها بطباعة هذا الكتاب . وإقامة الاحتفال اللائق بصدور كتاب يضاف إلى المكتبة الوطنية والتجربة المحلية.

روضة الفرخ الهدهد
٢٠١٤/٤/٦

ما يشبه التقديم

يجد القارئ في هذه الصفحات صورة من صور النفس الجيّاشة بالحنين إلى الجغرافيا المستباحة، أيام أن كانت يافا هانئة في نومها في حضن المتوسط، وموّارة بالنشاط والحركة في يومها المليء بالسفن والبحّارة، ورائحة البرتقال الذي صار حزيناً بعد تشريد أهلها. فيافا ليست ذكريات فحسب، بل هي حورية تظلُّ ملء السمع والبصر والوجدان، تسكن في ضمير أهلها حيثما ارتحلت بهم الأيام، ويحملها أهلها معهم حيثما اتجهوا، فمثلما هي عاصمة فلسطين، فإنها عاصمة وجدان أهلها؛ والعاصمة تعصم من النسيان والفقْد.

فالحديث عن يافا في سطور هذا الكتاب يمثِّل ذاكرة مثقف وذاكرة مدينة، حيث تتلاقى الذاكرتان لتتناوبا على سرد الأحداث والمواقف، وتسترجعا الصدى البعيد والقريب لألفة الأحبة، وشقاوة الطفولة، وتراحم العائلة وتلاحمها، والإصرار على قفز كل أسوار المستحيل، ليظل الحلم ممكناً، والاستمرار في العيش قابلاً للتحقُّق.

تسرد الأديبة روضة الهدهد في هذا الكتاب ذكريات مدينتها يافا، وذكريات العائلة؛ إذ تهبُّ عليها رائحة الحنين إلى ذلك الماضي المفعم بالشوق العارم، فتتلاقى صور الماضي الذي لا يُنسى، بصور الحاضر المليء بالشجن، لتشكِّل من التفاصيل والجزئيات لوحة مكتملة العناصر

والألوان. وليس هذا إلا بعداً واحداً من الأبعاد الوطنية التي نذرت الأديبة روضة الهدهد نفسها لها وهي تكتب عن فلسطين مكاناً وبطولة شعب، في أعمال أدبية غرست معنى البطولة والفداء في نفوس الجيل الجديد الحالم بالرجوع إلى ربوع يافا وأخواتها من المدن المقهورة بالاحتلال البغيض، بعد أن قرأ وسمع ما يُلهب الشوق إلى المرابع، ويعلي من وتيرة الحنين إلى العيش الهنيء، الذي يتعالى صُداحه في سطور هذا الكتاب، الذي هو ليس تاريخاً لعائلة وإنما تاريخ مدينة لها في الحضارة شأن، ولها في المدنية حضور تغبطها عليه مدن العالم الأخرى.

فهذا الكتاب في جزئياته وتفاصيله، متمِّم للجزء الأول الذي صدر قبل عهد قريب من صدور هذا الكتاب، فطاف بكل ما يتمثّل في هذه المدينة الجميلة من معالم تتعانق فيها المآذن والكنائس، وتتواءم العائلات، التي تحمل معها وثائقها في زمن الهروب إلى الأمام من استحقاقات المرحلة التي دفنتها قرارات دولية تقسم الحق بين الجلاد والضحية.

ما الذي تخبرنا به الأديبة روضة الهدهد في هذا الكتاب؟! ذلك ما سوف ينكشف للقارئ أكثر وهو يتصفح سطوره التي تمتزج فيها دمعة الفرح بدمعة الفراق، فيصيح من أعماقه : يافا ... سوف نشفى من المنفى والجرح ونعود إليك، فانتظري أبناءك...

محمد سلام جميعان
عمّان ٢٠١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

من مدرسة الزهراء الابتدائية في عمان أبدأ.. من ذكرياتي فيها على مدى سنوات بداياتي أنطلق.. ومن مقاعدها ومعلماتها وشهاداتها تبدأ الحكاية.

بعد خمسين عاماً أو ينوف، تتدفق دموع أمي أمامي على وجهها، فلا أنساها.. أرى الدموع اليوم تتدفق بفعل التأثر من قصيدة وقفتُ ألقيها في حفل مدرسيّ، أو موقف دراميّ في مسرحية أخذت فيها دور البطولة على مسرح المدرسة، وقد كانت أمي في الخمسينيات من ذلك القرن تحرص على حضور نشاطات بناتها في المدرسة، فكيف بي وقد كنتُ الأصغر بينهن، تأتي لتؤازرني فيما أشارك به..

أما والدي فهيم رحمه الله، فلا تزال كلماته ترنّ في أذنيّ يمتدح موقفاً من مواقف النجاح في المدرسة أعرضها عليه...علاماتٌ مرتفعةٌ في الامتحانات الفصلية والنهائية، ملاحظات المديرة والمعلمات بحسن أخلاقي وتصرّفاتي.. نشيد مدرسي أو آيات قرآنيّة أسمّعها غيباً فيطرب لها هو والحاضرون.. وعندما كنتُ أحفظُ قصائد عن يافا؛ مدينته التي هاجر منها وظلّ يحنّ إليها إلى أن وافاه الأجل، فقد كان يدعوني لإلقاء إحدى هذه القصائد أمام ضيوفه معتزاً بابنته وبآدائها مكرّراً على آخر أبياتها والتي تقول:

يـافا عليكِ تحيتي وسـلامي يافـا عروس الشرق والإسـلام
يافا ذكرتكِ في العشيـة والضحى وذكرتُ أمسك فاستثار غـرامي
يـا والدي إمـا قضيتَ مشرداً فـأدفن بيافا ثمَّ بعضَ عظامي
فلعلّني بعد الممـات أزورهـا فيطيب فيها مرقدي ومقـامي
الشاعر اليافي محمود الأفغاني

كنت في مدرسة الزهراء الابتدائية بالصف الرابع الابتدائي،حين شاركتُ باسم المدرسة في مهرجان خطابي كبير لمعظم المدارس الحكومية، وجرت تصفيات في كل مدرسة على حدة بين طلابها وطالباتها، ثم جرت تصفيات لمجموعات من المدارس، إلى أن كانت التصفية النهائية في سينما البتراء في وسط البلد في عمان، حضرها من سلك التربية والتعليم وزير التربية والتعليم ومديرو ومديرات المدارس وعدد كبير من المدعوّين.. وكان المدير في وزارة التربية والتعليم «مصباح العابودي» رحمه الله يأتي إلى مدرستنا ويدربني على إلقاء قصيدة عن يافا أيضا، للشاعر محمود الأفغاني، وذلك في غرفة المديرة «سلوى عبدالهادي» رحمها الله، وبحضور معلمة اللغة العربية الآنسة «سامية شعيب «.. كان اللقاء مرعباً لطالبة صغيرة لا يكاد طولها يبين من وراء الطاولة، والمربي مصباح العابودي ينقر الطاولة بعصاه إذا اسأتُ التشكيل أو الأداء، فتكاد ركبتاي تصطكان من الخوف، ولكنه يعود للإنحناء زاوية قائمة لتحيّتي إذا أحسنت الأداء..

وكم تدربتُ وكم أعدتُ قراءة بيت الشعر أو المقطع مراراً وتكراراً..
ولّما كان يوم المهرجان الرسمي وقفتُ على المسرح لألقي القصيدة أمام لجان الاختبار الرسمية، وكان لزاماً علي حمل ورقة القصيدة، خشية نسيان الأبيات أمام الجمهور، وكم كرهتُ مسكها، وكم رغبتُ بطرحها

على الأرض، كي آخذ راحتي في الإلقاء والإشارة.. ولما ظهرت النتائج، كنت الثانية في الترتيب، إذ نال الجائزة الأولى شاب من إحدى مدارس مدينة الزرقاء، كانت قصيدته عن جلالة الملك الحسين، كتبها المربي «مصباح العابودي» نفسه..

وفي اليوم التالي للمهرجان كانت الفرحة تعمّ مدرسة الزهراء ومديرتها ومعلماتها الفاضلات بفوز طالبتهن ونيلها الجائزة، وأذكر أنها كانت مجموعة كتب وقصص في شنطة مدرسية برتقالية اللون جميلة، طالما تباهيت بها وبمحتوياتها وبشخص مدير التعليم الذي أحضرها إلى المدرسة المرحوم المربي الفاضل «علي حسن عوده» الذي أصبح فيما بعد وزيراً للتربية والتعليم ومؤسساً للعديد من معاهد التعليم وحتى الكليات الجامعية في الأردن..

جميلة هي ذكريات الطفولة، وعندما مررتُ مؤخراً على «مدرسة الزهراء» كانت قد أصبحت «بيتاً للفن» تابعاً لأمانة عمان الكبرى.. كان البناء قد بني قبل عام ١٩٤٠ لعائلة «جودت شعشاعة» أبو أسامة.. وكان ولا يزال فخماً بمعنى الكلمة، تدخل إليه بوساطة أحد درجين على اليمين والشمال يلتقيان في وسط المدخل ذي الدرجات الأربع الأخرى.. فيرتفع البناء لا أقل عن عشرين متراً عن الشارع الرئيس، هذا الشارع الذي يصل وسط البلد إلى جبل عمان، ويسمى اليوم شارع الأمير محمد.. تدخل غرف المبنى فإذا هي أجمل ما يكون.. الشبابيك، الأبواب، البلاط، الهندسة، البناء.. كله جميل..

أما حمّاماته فتقع في ساحة البناء الخلفية.. وكم كنا نخشى الاقتراب من هذه الحمّامات التي تسكنها «الساكونة».. بل كم من المراحيض العامة

اكتشفنا لاحقاً أنها تسكنها «الساكونة «نفسها أو غيرها !! وهل كانت هذه «الساكونة «إلا من بنات أفكارنا وخيالاتنا، ليسَ إلا؟

في تلك الساحات حول هذا البناء الجميل كانت الطالبات يقضين أجمل الأوقات: باللعب، بأكل كعكة بسمسم، بأحاديث الطفولة.. كانت استراحة فترة الظهر مدّة كافية من الزمن لنذهب إلى بيوتنا، ثم نعود لمواصلة الدراسة..»فرصة الساعة العاشرة» و»فرصة الظهر».. وقت كاف لممارسة كافة ألعاب الطفولة من لعبة (الإكس إلى الحبل إلى الطماية تخبايه إلى الزقطة) إلى.. إلى.. تعززها معلمات مناوبات متفهمات، لا أذكر أن «الضرب «كان في قاموسهن اللغوي أو التربوي !!.

لو يعلم المعلمون والمعلمات دورهم الرائع المقدس في تربية الأجيال، لبذلوا جهوداً مضاعفة في أداء أدوارهم على أكمل وجه.

بعد انتهاء السنوات الست الابتدائية في مدرسة الزهراء كان لا بد للطالبات الانتقال إلى مدارس أخرى إعدادية وثانوية.. وعند انتقالي إلى مدرسة جبل اللويبدة الإعدادية كانت اثنتان من شقيقاتي: انتصار ورضا معلمات في تلك المدرسة.. إضافة إلى عدد من المعلمات مثل «ملك بدران «و»يسرى النجداوي» من زميلات أخواتي، ولكن المديرة ست «زينب أبو غنيمة «رحمها الله لم تكن لتترك أي طالبة من عصاها أو لسانها.. أداتان شاحذتان لم يكن يوقفها عن استعمالهما أحد.. فالمراهقة والانطلاق والشيطنة لا يوقفها إلا هاتين الأداتين الحادتين لسانها وعصاها..رحمها الله.

وفاة أبي

أبي مصدر القوّة في منزلنا، الآمر الناهي، المسيطر على كل مناحي حياتنا.. بكل الحب والتفهم.. ماذا نطبخ اليوم؟ اعملي لنا زغاليل مع ملوخية، فتطبخ الوالدة ما يريد دون تردد.. ماذا لديكم من مؤونة في المطبخ؟، يدخل المطبخ يفتّش الخزائن، ليُحضرمعه ما نقص منها في العصر.. ماذا درس الأولاد في المدرسة، تعال يا مَحمد اقرأ لي سورة الفلق، وأنت يا خليل اقرأ آية الكرسي.. هات شهادتك المدرسية يا روضة، يقرأها من ألفها إلى يائها بصوت مرتفع، كي يسمع كل فرد من أفراد الأسرة نتائج الآخرين، فيشيد بهذا ويوبّخ ذاك..

لم يكن ليرضى لأبنائه إلا التفوق.. وإلا فالعصا جاهزة.. لم يكن يضرب كثيراً، لكن الكسلان والمتمرد له عقاب..

وقد اختلفت شخصيات أخواتي وإخوتي، وكم تعاطفتُ مع أختي التي سميناها «أم دميعة» لتمردها على القوانين والأنظمة بشخصيتها المتفردة المحبّة للانطلاق، وعدم الرضى بالسير في السرب دون اقتناع، وكم تعاطفتُ مع أخي الذي كان يجد صعوبة في تهجئة بعض الكلمات، خصوصاً وضع الهمزة على نبرة أم واو أم ألف.. ولا ييأس أبي ولا يتراجع عن تعليماته ونصائحه ونظرياته.. يعيد ويعيد ويعيد حتى يلفظها أخي دون خطأ.

قبل النوم، كل واحد يقرأ ما حفظ من القرآن أمام الآخرين، فمن لم يخطئ يتباهى بنفسه، ومن أخطأ يعيد ويعيد ويعيد حتى نتمنى أن يسكت.. فإذا ما قام أبي من مكانه، انطلقنا نحن الصغار، أنا وأخي الأكبر مني محمد، وأخواي الصغيران: خليل ومحمود، للعب والشيطنة.. نتعارك ونتضارب بالأيدي والأرجل.. ما أجملها من أيام !! أستقوي على أحدهم فأرميه أرضاً وأثبّته بالأرض، فيأتي الآخر لإنقاذه، أو يستقوي عليّ الآخر فيقفُ لي في بقعة مظلمة من الدار كي يخيفني ويرعبني بحركاته...

لمنزلنا غرفة خارجية كنا نسميها «الغرفة الخامسة»، كانت في البداية مكاناً لتربية الدجاج والحمام... فأبي . رحمه الله . كان يربي الحمام والدجاج وحتى الأرانب، كجزء من ذكرياته وطفولته في مدينته، يافا، حيث البيارات والبساتين بأشجارها وخضرواتها وحيواناتها، وخيرها العميم الوفير.

ولما ضاق المنزل بعدد أفراده «سبع بنات وثلاثة أولاد وأم وأب» اضطر والدي إلى تفريغ الغرفة من شاغريها : الدجاج والحمام، ورفعهم إلى سطح الدار، وإعادة تنظيف الغرفة ودهنها كي تصبح «الغرفة الخامسة».
من هذه الغرفة المطرفة والبعيدة عن سيطرة الوالدين، كانت تتجلى الشقاوة والشيطنة وسهر الليالي وأحاديث الجنيّات والنكت واستحضار الأرواح الخبيثة والطيبة.

أو كما قال أحمد شوقي:
«خليّون من تبعات الحياة على الأم يلقونها والأب»
وكم تحمّل والدي هذه الأفواه المتفتحة للحياة، والمتطلبة لكل شيء..

وهو يبذل كل الجهد كي يوفر القرش لمتطلّبات أبنائه، وأمي تكمل الرعاية والعطف في المنزل.. كل وسيلة تجاريّة، ممكن أن تدرّ دخلاً إضافياً لوالدي، جرّبها، فالهجرة صعبة والمطالب كثيرة، وعائلة أخيه المتوفى والتي هاجرت إلى سوريا تزيد من أعباء الحياة عليه.. والراتب من دائرة الأراضي والمساحة التي يعمل بها لا يكاد يفي بالمطلوب..

وكان والدي رحمه الله قد قام بتزويج خمسة من بناته، فالزواج للبنت سترة وتخفيف أعباء، وكانت الأخيرة متزوجة لعائلة طبيب، وفي يوم من الأيام أحسسنا نحن الصغار أن في الأمر خطورة، فقد أقبل هذا الطبيب «يوسف عز الدين» في وقت غير عادي لزيارتنا، وأعلن للجميع أن والدي قد أصيب بجلطة قلبية.

هذا الرجل القوي المسيطر، المحب، المطّلع على كل صغيرة وكبيرة في حياتنا، نام في الفراش فلم يعد يستطيع تحريك يد أو رجل.. هذا الرجل الذي كان يشرب الدخان «شرباً» والذي يغازل أمي علناً، والذي يحضر لنا البطيخ بالعشرات والزيت بالتنكات والجزر بالشوالات، والذي يحرص على إعطائنا .بيده. حبة زيت السمك، وكأس عصير البرتقال والجزر، نام في الفراش ولم يعد يشاركنا مشاعرنا وأحاسيسنا.

هذا الرجل الذي كان يطرب لسماعنا ونحن نلقي الشعر، أو نتلو القرآن أو نناقش ما قرأنا من كتب وموضوعات ثقافية وقصص.. لم يعد يسمع لنا شيئاً..فمن الذي سيحكي لنا القصص والذكريات عن يافا وبياراتها وشاطئها وبحرها وناسها وبيوتها، من الذي سيعيد لنا ما سمعه من قصص ألف ليلة وليلة في الإذاعة الليلية، وقد أصبح لا يستطيع الحديث ولا السماع !!

لله ما أصعبها من أيام !!!

بعد أيام قليلة عرفنا أن جلطة ثانية «مرتدّة» عادت فضربت قلبه الكبير، فلم يتحمّل ومات..

كيف يموت المرء فجأة؟ كيف تسقط الجدران والسطح على سكان البيت؟ من سيظلّل البيت؟ من سيسمع نداءات أطفاله وبناته؟.. من سيعيد للبيت ركنه العتيد وشمسه التي لا تغيب، والحب والعطف والحنان؟؟

لم أكن في حينها إلا طفلة في الثانية عشرة من عمرها، لكن رهبة الموت هزّت كل أركان البيت، رأيت الفزع والهول يسيطر على والدتي وهي تستمع للطبيب بأن زوجها قد مات ! رأيت أخواتي المتزوّجات يعدن إلى البيت والدموع تملأ مآقيهن، ورأيتُ الحيرة والذهول تغيب إخواني الصغار محمد وخليل، أما محمود الأصغر سناً فلم يكن في الحسبان !!

رفضت أخواتي الأكبر رؤية «الميت» من شدة الخوف والرعب، فلم أجرؤ على رؤيته كذلك.. وحملوه إلى خارج الدار في هرج ومرج لا ينسى، وبقيت صرخة أمي عند خروجه من الدار تهز الدار..

إن أنسى لن أنسى صديقات أمي وقد حضرن لتعزيتها في وفاة زوجها. هي في الأربعين من عمرها، وهو في الخمسين . والصغار حولها لا حول لهم ولا قوة.. وصديقاتها يندبن وينتحبن على بختها وقلّة حيلتها.. كانت الصديقة منهنّ تأتي من مدخل الدار تولول وتصرخ، وأنا ينتابني الرعب والفزع من صراخها.. «يا ويلي عليك يا أم محمد.. ترمّلتِ وأنت صغيرة..

ولم أكن في حينها أفهم لماذا تصرخ المرأة الغريبة لوفاة والدي؟.. وظلّ النواح والولولة عالقة في سمعي إلى اليوم !!

في أرجاء تلك الدار الواقعة في شارع الأمير محمد، في وسط البلد عشتُ، حيث كان وسط مدينة عمان في تلك الأيام ١٩٥٢-١٩٦٠ موطناً للعديد من الأعراق والإثنيات.. ويسّمى «طريق وادي السير»، منها وباستمرارها نصل إلى قرية وادي السير التي يسكنها الشركس، الذين هاجروا من بلادهم روسيا هرباً بدينهم..

ومدرسة الزهراء العريقة تقع في ذلك الشارع، والبيوت على الجانبين يقطنها فلسطينيون وأردنيون وشركس، مسلمون ومسيحيون.. والناس يعرف بعضهم بعضاً، ووالدي يحب التعرف إلى الآخرين والتعامل معهم.. هذا عنده قمح وذاك عنده زيت، وذلك يريد التجارة بالزجاج،وهذا يريد بيع قطعة أرض.. وهو اجتماعي ذو عقل تجاري، ولكنه أولاً وأخيراً لاجئ فلسطيني..

أما والدتي فكانت هي الأخرى اجتماعية من الطراز الأول.. كل الجيران معارفها، وكل الناس أصدقاءها، ولحبّها للناس أحبّها الناس.. فأنت تتبادل مع الآخرين الحب، فإن حقدت وحسدت وامتلأت غيرة ونميمة قابلك الآخرون بذلك، ومنّوا عليك بالكلمة الطيبة أو الشعور الحسن.. ولكنها هي الأخرى لاجئة فلسطينية.

في تلك الدار تزوّجت أخواتي الكبيرات : «كاملة وازدهار وافتخار وانتصار ورضا» لكل زواج قصصه وأحاديثه وذكرياته التي لا تمحى... وأنا المراهقة الصغيرة أستمتع بهذه القصص والحكايات، أسمعها ألف

مرّة، وأعيدها في ذهني ألف مرة أخرى.. ماذا كانت «الشَّبْكة»، ماذا أحضر العريس لعروسه؟ كيف يقفل الباب على الخطيب مع أختي في منزلنا؟.. من سيذهب مع الخاطبيْن إلى السينما؟ ماذا سنلبس لحفلة الزفاف؟

وعندما تركنا هذه «الدّار» ظلّت الذكريات تترى في ذهني ولا يمحوها الزمن.

وعندما كبرت وتزوّجتُ وعدتُ لعمان، ظلّ حنيني لتلك الدار كبيراً، فكرت مع إخوتي وأخواتي أن نستثمر الأرض و أن نعيد بناء الدار، ولكن صدمة العمر كانت عندما ذهبتُ مع أخويّ لنرى الدار بعد فراقها مدة عشرين عاماً أو يزيد !!

ظللنا أسابيع وأشهر نتندّر بدهشة كبيرة، كبرَ العشرين عاماً، لحجم تلك الدار.. كنا نظنها كبيرة وواسعة، فإذا بنا نراها صغيرة. بل صغيرة جداً... الغرفة الخامسة التي كانت منفصلة عن الدار، والتي كنا نظنّ أننا «سنسافر لنصلها»،إذ بها لا تبعد عن البناء متراً أو نصف متر.. الساحة الأمامية التي كنا نظنها مهبط طائرات، إذا بها ساحة صغيرة لا تستطيع الدراجة الدوران فيها!! الغرفة الرابعة، التي كانت لوالديّ إذ بها غرفة صغيرة قد لا تتسع لأثاث غرفة نوم فخمة. من سرير مزدوج وخزانة و«تسريحة» وكرسيين مع «كوميدينو».. أما المطبخ فحدّث ولا حرج، صغير ومعتم وبلا شبابيك. كيف كانت والدتي تطبخ فيه لكل هذه الأفواه والمعارف والأقارب؟

حتى سطح الدار الذي كنا «نتسلقه» أنا وأخي خليل، إذ بنا نكاد نلمسه بيدنا إذا مددناها !!

المهم أننا ومن باب الذكرى، والاستثمار قمنا بإعادة البناء عمارة بخمس طوابق للإيجار.

وسمينا العمارة عمارة الفهيم.

وترحمنا وما زلنا نترحم على فهيم وهدى.. والدي ووالدتي..

مدرسة بنات رام الله الثانوية

في عام ١٩٦٠ انتقلتُ إلى مدرسة بنات رام الله الثانوية، بسبب انتقال سكن عائلتي إلى هناك، فبعد وفاة والدي «فهيم» رحمه الله، لم تستطع والدتي المكوث كثيراً في بيتها في عمان حيث الذكريات، فانتقلنا إلى حيث تسكن أختي الكبرى، واستأجرنا بيتاً في «حي الشرفة» في مدينة البيرة.. والبيرة ورام الله مدينتان متجاورتان لا يفصلهما فاصل. فالبيت في أول الشارع يتبع بلدية البيرة وفي آخره يتبع بلدية رام الله، ولكل مدينة منهما رئيس بلدية ومجلس بلدي، الفرق أن رئيس بلدية البيرة مسلم ورئيس بلدية رام الله مسيحي.. والمنافسة بين المدينتين كبيرة..

ولكن شهرة رام الله بأنها مصيف الأردن وفلسطين، كانت أكبر، فيؤمها العرسان لقضاء شهر العسل في فنادقها الناهضة على ربوة عالية، مثل فندق عودة، وفندق حرب، وفندق الحمراء، وفندق بانوراما. ويفدُ إليها المصطافون من الكويت والعراق وبعض دول الخليج، حيث بوظة «رُكب» المشهورة وحديقة البلدية . المنتزه . وحيث وسائل الترفيه الليلية والنهارية المختلفة .

ولعلّ مدرسة «الفرندز» في رام الله كانت من أوائل المدارس الخاصة للبنين والبنات وبأقساط سنوية مرتفعة.. لم تكن المدارس الخاصة منتشرة حينها.. الكسالى فقط كانوا يلتحقون بالمدارس الخاصة

القليلة والمعدودة على أصابع اليد، إن كان في العاصمة عمان أو في المدن الكبرى.. لكن مدرسة «الفرندز» كانت لها شهرة واسعة، ازدادت مع الأيام، بحيث أصبحت نصب أعين أبناء الذوات والأغنياء من أهل رام الله وفلسطين ومن الأردن.. فتتباهى العائلة أن ابنها أو ابنتها يدرس أو قد تخرّج من هذه المدرسة.

وكانت مدرسة بنات رام الله الثانوية أهم مدرسة حكومية للفرع العلمي.. وكنا نحن الطالبات من سكان البيرة ننطلق يومياً مشياً على الأقدام، أو بركوب الحافلة، للوصول إلى مدرستنا، وياله من مشوار رائع..

كنا نمشي حوالي ساعة، طالبتان، ثلاثة أو خمسة، أذكر منهن «شريفة حموده، نهلة نايفة، دولت الرنتيسي، هدى العبيدي»، ونقطع مسافة لا تقل عن ثلاثة كيلو مترات، كأمتع ما يكون المشوار.. أحاديث وضحكات وقفشات، شباب يعاكسوننا فنسعد، وأصحاب محلات نعاكسهم فنتشاقى، تمطر فنفرح، تضحى ويشتد لهيب الشمس فلا نهتم، وإذا عزّ المشوار من مطر غزير أو شمس حارقة، نستقل الحافلة العمومية بثقة ومتعة، أفتقدها اليوم عند أجيالنا الصاعدة، التي نحرص على إيصالها من مكان إلى آخر بالسيارة والسائق، وعشرات التوصيات و «التحويطات».

معظم بيوت البيرة ورام الله الحجرية من أموال المغتربين من أبنائها.. ومعظم عائلات هاتين المدينتين هاجر شبابها - القادرون على العمل . إلى أمريكا للعمل فيها، يحضرالرجل منهم بعد غياب سنوات يجد زوجته وأبناءه بانتظاره، يغدق عليهم ما جمع من مال، فيُعلي بناء منزله ويوسع أرض حديقته بشراء مزيد من الأرض، ويُزيّن صدر زوجته

ومعصميها بمزيد من الذهب، وعندما يطمئن إلى «حملها «يعاود السفر إلى المهجر، ليحضر بعد سنوات للقيام بنفس الأعمال.. والسيدات قانعات راضيات بسفر أزواجهن، بل على الأرجح سعيدات بذلك، فالخير الوفير لا يأتي إلا من السفر والغربة..

ولله في خلقه شؤون..

المعلمة القدوة

في مدرسة بنات رام الله الثانوية تبلورت شخصياتنا مع معلمات مميزات أنعم الله بهنّ علينا.. كانت مديرتنا المربية الفاضلة : «مس جميلة حنا» إنسانة مسالمة تركت المجال لمعلّماتنا لِتُكوّن انتماءاتنا الفكرية كيف يشأن..

المعلمة «فاطمة النجاب» وأختها ست «رقية النجاب» من الحزب الشيوعي.. بل إن أخاهما «سليمان النجاب» القيادي في الحزب الشيوعي تزوج إحدى زميلاتنا «ليلى سعيد» وقضى نصف عمره في سجون الأردن وفلسطين المحتلة بعد احتلال ١٩٦٧م.. ومعلمتنا الأخرى «ست هيفاء البشيتي» تعطينا المواد العلمية والرياضيات بكفاءة لا نظير لها.. انضباط تام في الحصة، وواجبات كثيرة للحل في المنزل.

وأساتذة ذكور يحضرون للمدرسة كدوام جزئي معارين لنا من مدرسة الذكور.. ونحن صبايا يدغدغهن الحديث عن الجنس الآخر، فهذا معلم الفيزياء «داوود العبيدي»، وذلك معلم الميكانيكا، وذلك معلم الأحياء «سليمان غنام» من قرية «دير أبان» المجاورة، وذلك معلم اللغة العربية «سعيد سمور «الوقور الذي يتحمّل شيطنة البنات وشغبهن..

ولكن للمعلمة «نهيل عويضة «معلمة اللغة الانجليزية فضل وتأثير على الطالبات كان يفوق كل هؤلاء المعلمين والمعلمات..

كانت ست «نهيل عويضة «– أطال الله في عمرها – ملتزمة حزبياً مع حركة القوميين العرب، ولم نكن نحن بالطبع في ذلك الوقت نعرف ذلك. ولكنها استطاعت بفعل تكليفنا بنشاطات غير منهجية أن تزرع فينا حب القومية العربية، و أن تنظمنا وتلحقنا بتلك الحركة دون أن ندري !!

أسّسنا مع ست نهيل نادياً للغة الانجليزية وحلقات لمناقشة . كتاب قرأناه . وباشرنا بتعليم السيدات كبيرات السن «الأميات «.. وجادلنا معلماتنا الشيوعيات بمجادلات «بيزنطية» حول ما يجري حولنا من أحداث وأخبار سياسية.. ولمّا انطلقت المظاهرات عام ١٩٦٣ لمساندة الحركة الناصرية، كنا نحن طالبات بنات رام الله الثانوية في طليعة المتظاهرين في شوارع رام الله والبيرة..

كم كتاب سياسي وغير سياسي ناقشنا في ما يمكن تسميته «خليتنا الحزبية»! كم منشور سياسي قرأنا ووزعنا على بيوت المنطقة في السّر! كم موقف سياسي اتخذناه ودافعنا عنه ! ونحن لا نعلم حقيقة أن ما نقوم به هو جزء من عمل سياسي منظَّم لم نكن نفهمُه أو نحيط بتفاصيله أو نقدِّر أبعاده!

في المقبل من الأيام، سيكون لهذه الخلية دور هام في مقاومة العدوّ الصهيوني وقسط وافر من المعاناة من هذا الاحتلال.

ذهبتُ ومجموعة من الصديقات «لطيفة الهواري» «عائشة عودة» و «سائدة خليل» إلى مخيم «الأمعري» للاجئين لنستقطب السيدات لإنشاء صف محو أمية في مدرستنا.. كنا من الحماس والاندفاع بحيث

كنا نرغب بفتح «مدرسة داخل مدرسة «لتعليم السيدات والبنات الأميات، وكان مخيم الأمعري «ولا زال في مكانه إلى اليوم» يقع على الشارع الممتد من القدس إلى البيرة و رام الله، ويقطنه كثيرون ممن هجِّروا في نكبة عام ١٩٤٨. ودخلنا البيوت أو قل. أشباه البيوت. والخيم والتنكايات لنستقطب الدارسات ونعدُهم بعلمٍ عميمٍ..

ولحماستنا المنقطعة النظير، قسّمنا أنفسنا لتعليم ما ندرسه نحن في المدرسة، ودخلتُ «حصتي» كمعلمة لا يتجاوز عمري نصف عمر أصغر طالبة منهن، إذ كنتُ في الرابعة عشرة من عمري، أحمل مجسماً للكرة الأرضية، استعرته من معلمة الجغرافيا، لأشرح للطالبات «الأمهات» عن هذه الكرة وأين نسكن نحن عليها، أديرها بسرعة فتلف من الغرب إلى الشرق، وأفتش عن موقع «الأردن وفلسطين «عليها، لأذكر أننا نعيش هنا بينما نلف وندور إلى هناك !! وكان هذا الحماس وهذا الاستهلال غير المنطقي مبعث استهجان السيدات الحاضرات، فانخفض العدد إلى النصف، وضاعت أحلامنا بفتح «مدرسة لمحو الأُمية»، ولكن المشروع استمر بفضل دعم معلمتنا الفاضلة ست نهيل عويضة ودعم المديرة ست جميلة حنا ودعم وزارة التربية والتعليم التي كانت تزود المدرسة بأقلام ودفاتر خاصة لبرنامج محو الأُمية هذا..

ومع المظاهرات، و القراءات، و نوادي اللغة الإنجليزية والعلوم و برامج محو الأمية والاجتماعات، كانت الدراسة هي الأهم في حياتي.. وكانت نتيجة التوجيهي رائعة..

وبعد أقل من عام من دعوة ست «جميلة حنا» ومديري ومديرات المدارس لاجتماع في قصر الملك لتقديم الولاء للعرش الهاشمي إثر

المظاهرات والاحتجاجات التي قام بها بعض طلاب المدارس، عادت ست جميلة مع طالبتين من طالباتها هن «هالة امسيح وأنا «لقصر بسمان العامر» للقاء الملك حسين رحمه الله، ليتم تكريمها مع المديرين والمديرات الذين حصل طلبتهم على نتائج باهرة في امتحان الثانوية العامة (التوجيهي).

كنت من هؤلاء الأوائل العشرة على المملكة.. وكانت ست جميلة قد وبّختنا سابقاً بأننا كنا سبباً في زيارتها الأولى، غير المريحة للقصر. فقلتُ لها بخجل: ها نحن قد جئنا بك إلى القصر مرّة ثانية ولكن في زيارة مريحة بدل تلك !!.

اليوم وعندما أُدعى على مأدبة الملك والملكة على الإفطار في رمضان.. إن في عهد الملك الحسين طيب الله ثراه، والملكة نور الحسين، أو في عهد الملك عبد الله بن الحسين حفظه الله والملكة رانيا العبد الله.. فإنني أذكر تلك المأدبة بوجود مديرتي ست «جميلة حنا» قبل ما ينوف على أربعين عاماً، أي عام ١٩٦٤م، تكريماً للعشرة الأوائل في المملكة مع مديريهم ومديراتهم.

مأدبة لها طعمٌ خاص ونكهة خاصة.. فلا أنسى جلالة المغفور له الملك الحسين يقف بيننا ويحمل صحنه من الرز واللحم مثلنا نحن الطلاب...
فرعاية المتفوقين والأجيال الصاعدة أمر مهم، ولها أثر كبير عليهم...

وفي استعراض الذكريات السعيدة التي تبقى في القلب والمحطات الفارقة في حياتي سأجد أن الحصول على درجة متميزة في التوجيهي..

«من العشرة الأوائل في المملكة»، سيكون من أهم، بل أهم فرحة عشتها، حتى بمقارنتها بنتيجة جيدجداً في السنة الأولى صيدلة في جامعة القاهرة، أو ميلاد أول طفل، أو نشر أول كتاب لي.. أو.. أو..

الأبواب المفتوحة

كل فتاة، وكل سيدة، تظل تتباهى بكثرة «خُطّابها» الذين تقدموا لخطبتها ذات يوم.. ولم أسمع امرأة إلا وقالت نصف سكان عمان خطبوها وسعوا للاقتران بها.. هكذا نحن البنات.. وأعتقد أنني مثل بنات جنسي أحب أن أشعر بالزهو والخيلاء بأن كذا مهندس، أو طبيب أومعلم خطبني، وكذا أم وصديقة لوالدتي طلبت يدي لابنها أو أخيها أو حفيدها..

لكن مشكلة أخواتي «الست» قبلي كانت مشكلة لدي في هذا الموضوع. فكل أخت من أخواتي، كانت تأتي لزيارة أمي وتحضر معها مشكلاتها : إن مع زوجها أو أهله أو أبنائها..أما المسرات، أما ساعات الهناء فتلك لها وحدها.. وكنتُ الصغيرة الوحيدة التي أسمع هذه المشاكل، فأغتاظ منها أيما غيظ، وأشعر بحنق كبير على الرجال بشكل عام، فهم مصدر آلام المرأة ومشاكلها، وهم سبب معاناتها وضعفها واستكانتها.. وردّاً على كل هذه المشاكل والأزمات، قررتُ أن لا أتزوج، ولن أدع رجلاً يُعكّر حياتي المنطلقة المليئة بالديناميكية والحركة، بل سأواصل تعليمي كي يكون لي دور مهم في هذه الحياة..

لم أكن قد حسمتُ أمري بماذا سأتخصص في الجامعة.. فقد كنتُ أُعجب بمادة التاريخ أيما إعجاب.. فأعيش الثورة الفرنسية والأميركية،

وأتغنى بعصر النهضة، وأحفظ تاريخ صدر الإسلام والفتوحات العربية في مشارق الأرض ومغاربها، أتماهى مع «عبدالرحمن الداخل» في بناء دولة الأندلس، ومع ثورة «عمر المختار» في ليبيا، أتنفس عبير الثورات على أرض فلسطين ووطنية «جمال عبدالناصر».. باختصار كنتُ أتمنى صناعة التاريخ الناصع الوضّاء.

وإذا ولجتُ إلى المواد العلمية، أراني عالمة في علم الصيدلة أو طبيبة لامعة أو باحثة مجدّة في علوم الفلك والفيزياء.. كنت أعشق اختراعات «لويس باستور» أو «روبرت كوخ» وأعيش بكل مفردات اقتحام الفضاء الخارجي والمشي على القمر ومعرفة تفاصيل ملابس رجال الفضاء.. وعندما كنت أقرأ عن المحامين والقضاة، واللصوص والقتلة، كنت أتصور نفسي «روبين هود العرب» أو قل «عروة بن الورد»، أردُّ الحقوق لأهلها، وأرفض الخيانة والتسلط والاستغلال..

كل الأبوب كانت مفتوحة لي لولوجها والتخصص بها.. وكنت أجدُ نفسي في كل مجال، محلّقة مبدعة، بل قل ثائرة، أثورعلى القيم البالية والأفكار العقيمة وأُحدث ثورة في عالم الصيدلة أو الطب أو الفلك أو المحاماة..

ولكن ظروف الإنسان وتقدمه في العمر، تضع للمرء الكوابح والفرامل أو قل تضع النير على رقبته للعودة للواقع والأرض.

مع دير ياسين.. وهند الحسيني

عندما أنهيت دراسة الثانوية العامة، عام ١٩٦٤، وقفتُ على مفترق الطرق لأختار.. كان الزواج واحداً من هذه الطرق، فغضضت الطرف عنه، وكان العمل أحدها، فعملتُ معلمة مدة ثلاثة أشهر لحساب وزارة التربية والتعليم، في مدرسة «دار الطفل العربي» في القدس.. عندها تعرفت على هذه الدار ومؤسستها السيدة المرحومة «هند الحسيني». إنها الدار التي احتضنت خمسة وأربعين طفلاً وطفلة رمتهم سيارات «نقل الحصمة والتراب «عن ظهرها أمام سور مسجد عمر ابن الخطاب في القدس. ففي اليوم الثاني لمقتل سيد شهداء فلسطين «عبدالقادر الحسيني» على جبل القسطل دفاعاً عن القدس، اقتحمت عصابات الأرجون وشتيرن والهجانا قرية «دير ياسين» وقتلت حاميتها ومئتين وخمسين من أبنائها وبناتها، وحملت خمسة وأربعين طفلاً وطفلة في سيارة نقل الحصمة والتراب، تدور بهم من قرية إلى قرية عربية، ترميهم على أبواب مساجد هذه القرى ثم تعود لأخذهم لإتمام عملية «الفرجة» عليهم، فلما وصلوا إلى القدس رموهم أمام مسجد عمر بن الخطاب/ قرب المسجد الأقصى بلا رجعة.

يومها أخذت ست هند الحسيني هؤلاء الأيتام، وأسست لهم «دار الطفل العربي» في منزلها في القدس، واستمرت المؤسسة إلى يومنا هذا، ترعى الأيتام واليتيمات في فلسطين، بل لقد توسّعت لتصبح كلية جامعية

إلى جانب كونها مدرسة كاملة المراحل، تؤكد الوجود العربي في القدس وقد كان لهذه الحادثة تأثير مباشر كي أكتب كتابين للأطفال عنهما : كتاب الزمن الحزين في دير ياسين، وكتاب هند وأطفال دير ياسين.

لا أعتقد أنني سأتحدث عن الكتب التي كتبتها للأطفال، فهي كثيرة تنوف على خمسين كتاباً، منها أربعة وعشرون كتاباً تحت عنوان حكايات بطولية للأطفال، بدءاً من كتاب في «أحراج يعبد»، وصولاً إلى كتاب «حلم عبدالحميد شومان».. ولكل كتاب تجربة ودراسة ومقدّمة وأحداث وقصّة..

ولكن تجربة كتابي «هند وأطفال دير ياسين» و «الزمن الحزين في دير ياسين» يتحدثان عن أكبر جريمة اقترفها الصهاينة ضد الشعب الفلسطيني الأعزل، رجاله ونسائه وأطفاله، ولا أعتقد أن أحداً ممن سيقرأ كتابي هذا الذي بين أيديكم، لا يعرف الأثر الكبير لهذه المجزرة – الجريمة – على تهجير مدن وقرى فلسطين، فثلاثة أرباع مليون فلسطيني تركوا أراضيهم وبيوتهم ومدارسهم، ومحلاتهم التجارية.. ليرتموا في المخيم أو في العراء، في الثلج والبرد والمطر، أو في الصيف الحار.. دون أدنى درجة من الإنسانية أو العيش الكريم..

وقد تعرفنا كعائلة منذ صغرنا على عائلة «أسعد» من دير ياسين.. وكانت والدتي هدى رحمها الله، تقابل هذه السيدة – أم داود أسعد – وتستقبلها في بيتنا «يوم الاستقبال» الذي كان مرّة كل شهر. وكم استمعنا لهذه السيدة بلهجتها الفلاحيّة المحببة تتحدّث عن دير ياسين، وهجوم عصابات الأرجون والهاجاناه بقيادة «مناحيم بيغن» عليها.. كم أعادت على مسامعنا هي وابنتها «نزيهة أسعد «وإخوتها المهندس داوود وفيما بعد الدكتور يونس والمهندس يوسف عن ذكرياتهم في طفولتهم عن هذه المجزرة..

وفيما بعد تعرفتُ على السيدة المناضلة الرائعة «ست هند الحسيني» رحمها الله.. وحدّثتنا عن دورها في ضم الأطفال الخمسة والأربعين الذين شردتهم العصابات الصهيونية من هذه «القرية الهادئة» دير ياسين، وكان لي شرف العمل معها في «دار الطفل العربي «عام ١٩٦٤- قبل سفري لمتابعة دارستي الجامعية - فأحسستُ أن دير ياسين قضيّة يجب أن تنبري لها الأقلام لتكتب عنها عشرات القصص..

لقد استغل الصهاينة ما جرى لهم على يد النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية فيما سمّوه المحرقة أو الهولوكوست، ليدّعوا أنهم ضحايا وأن على العالم تعويضهم مادياً ومعنوياً، وبالتالي أقاموا دولتهم على أرضنا فلسطين، وأعملوا في الشعب الفلسطيني قتلاً وتهجيراً وإجراماً لا يعادله أي إجرام .. وقد أصاب الكاتب «نواف الزرو «عين الحقيقة عندما أفرد كتاباً كاملاً أتبعه بكتاب آخر ثم آخر عن الهولوكوست الفلسطيني المفتوح.. يعدد فيه الجرائم تلو الجرائم التي يرتكبها الصهاينة بحق هذا الشعب والشعوب العربية الأخرى..

ألا تعتقدون معي أننا مقصرون في تطويع الأدب والفن والسينما والمسرح لخدمة قضية العرب الأولى : فلسطين، والصراع العربي الاسرائيلي؟؟

اختفاء أمي

وقفتُ أمامها أطلب رضاها الكامل عن سفري لمتابعة الدراسة.. فمُعيلها الأكبر . والدي . قد توفاه الله قبل أعوام قليلة، وابنها الأكبر محمد قد سافر إلى الموصل في العراق لمواصلة تعليمه في كلية الطب، وخمسة من أخواتي الأكبر سنّاً متزوجات كلّ في بيتها ومع أولادها.. وحدها أختي فاطمة تعمل في الكويت كي تؤمّن مصروفنا، وأنا قد قُبلتُ كمعلمة في مدرسة «دار الطفل العربي» أقبضُ راتباً محترماً يساعد في المصروف، وعلى الباب أخوان أصغر مني لا بد وأن يذهبا للجامعات بعد سنة أو سنتين، فكيف أكون أحقّ منهما في الدراسة الجامعية؟

لم يكن إقناعها صعباً، فطالما آمنت بي وبقدراتي على النجاح والتفوق في الدراسة، فهل ستقف اليوم في طريقي؟

ثلاثة أشهر فقط عملتُ في دار الطفل العربي، ثم قرأتُ نتيجة قبولي في كلية الصيدلة في القاهرة، فطرتُ فرحاً إليها، ولم تكن رغبتها أقل من حماستي، لكن الظروف كانت صعبة.

وأمام إصراري، ومع دعم أختي كاملة وزوجها سعيد شعبان . رحمهما الله . ومع قبولي منحة على حساب وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين لتفوقي في الدراسة، قبلت والدتي سفري.

لقد كانت أختي الكبرى «كاملة «تحبّ العلم حقاً، وتؤمن بضرورة توفير التعليم للفتيات.. كانت هي قد حرمت من التعليم الجامعي بسبب نكبة الفلسطينيين وهجرتهم القسرية عن بيوتهم، ألا يكون من المناسب الآن أن تدعم تعليم أختها الصغرى؟

ويوم سفري اختفت والدتي من المنزل نهائياً، ففي عتمة الليلة السابقة لسفري غادرت المنزل إلى بيت أخيها في قرية «شويكة» قرب طولكرم دون إعلامنا بذلك، كانت نادراً ما غادرت منزلنا أو تركتنا، ولكن قسوة الفراق أجبرتها على ذلك، كانت قد أوصتني كثيراً على نفسي وعلمي وأخلاقي وديني، فالحب كما كانت تقول، لا يأتي من نظرة واحدة، فإياكِ أن تكثري لقاء الشباب الذين «قد تقعي في غرامهم»، كأن يكونوا من غير ديننا أو أقل من مستوانا !!

غبتُ عن والدتي الحبيبة عاماً دراسياً كاملاً دون وداع. لكن وصاياها ظلّت معي في حلي وترحالي !!

في القاهرة

في القاهرة وفي كلية الصيدلة وفي عهد المدّ القومي لجمال عبدالناصر وحقبتهِ الثورية التاريخية، كان المجال مفتوحاً لي للعمل !!

على صعيد الدراسة كنتُ لازلت من المتفوقات في الدراسات النظرية وعلى المدرجات الجامعية، في المختبرات العلمية، في إجراء التجارب والوقوف سبع ساعات متواصلة في مختبر الكيمياء التحليلية.. في الحفظ «والبصم»، في السهر وشرب الشاي للصحو حتى الصباح أيام الامتحانات.. وعندما انتهى العام الأول حصلت على نتيجة «جيد جداً» لم أكن أحلم بها..

في العودة لذكريات الجامعة، أستطيع أن أعترف أنها كانت أحلى سنوات العمر.. لم تكن تفوتني رحلة جامعيّة أو نشاط طلّابي أو إفطار رمضانيّ جامعيّ.. لم أكن أتغيّب عن محاضرة أو مختبر أو ندوة.. الجميع يشيد بأخلاقي وتفوّقي وترتيبي وأناقتي.. وكانت زميلاتي «هدى العمري» الأولى في التوجيهي في ذلك العام، و «سلمى حجازي» و «أمل البسطامي» من عمّان و «أنعام الخششي» من نابلس و «عهود كمال» من نابلس، ندرسُ معاً ونشترك في رحلات الطلبة الوافدين، وعندما أحسسنا أن منزل الطالبات الذي نعيش فيه - وكان تابعاً لجمعية خيرية - لا يعاملنا بآدمية، رمينا معاً صحون الصاج التي كان يؤمن لنا فيها الأكل، رميناها

في نهر النيل القريب، ورفضنا النوم على «الفرشات» المهترئة، بل وأرسلنا برقية «لجمال عبدالناصر» لتصحيح الوضع البائس الذي كان يقدم لنا بمقابل مادي زهيد جداً. والغريب أن صيحتنا هذه وصلت للسيد الرئيس «جمال عبدالناصر» وتحسنت الأمور بشكل كبير..استبدلتْ صحون الصاج بصحون الزجاج، وأُبدلت الفرشات المهترئة، وتحسن الغذاء اليومي، فكان إحساسنا بالنصر رائعاً..

لعلّ هذا النجاح حفزني لمزيد من العمل، فخضت تجربة الترشّح لانتخابات «اتحاد الطلبة الفلسطينيين «وكانت القائمة تضم عدداً من الطلبة والطالبات في كليات الطب والصيدلة والعلوم والهندسة، والكليات الأدبية المنتشرة في جامعة القاهرة وعين شمس وغيرها..وكان المناضل - الذي لا زال يعمل في مجال القضية الفلسطينية . «تيسير قبعة» رئيساً لهذه القائمة، وكان من مؤازريها الدكتور. الطالب حينها . «ممدوح العكر» والدكتور الطالب «عصام هاشم»، والمرحومة «شهناز استيتيه»، والمناضلة «خزامى ارشيد» من مدينة إربد في الأردن، وكنت أذهب لبيوت الطالبات الفلسطينيات في القاهرة لحثهنّ على انتخابي.. فلمّا صدرت النتائج في ساعة متأخرة من تلك الليلة، جاءت السيارات تطلق أبواقها العالية أمام بيت الطالبات - حيث أسكن - لتنقل لي خبر فوزي في الانتخابات..

بعدها أصبحتُ عضواً ممثلاً لاتحاد الطلبة في اتحاد المرأة الفلسطينية في القاهرة، وكنت أجتمع مع السيدات برئاسة السيدة «سميرة أبو غزالة» الرائدة في العمل الوطني : الإعلامي والاجتماعي والخيري في مصر، حيث كانت مسؤولة ضمن مسؤولياتها الجسام في الاتحاد، عن المعارض والتطريز الفلسطيني والتعليم والندوات والمؤتمرات وغير ذلك كثير،

عدا عن عملها المهني كمسؤولة مباشرة عن برنامج إذاعي عن المرأة الفلسطينية، من خلال إذاعة صوت العرب.

لقد كانت تجربة اتحاد المرأة الفلسطينية واتحاد الطلبة الفلسطينيين في القاهرة تجربة ثرية لي على كافة المستويات..

الساعات الست

لا أعتقد أن هناك سنة في عمر أبناء هذا الجيل أصعب وأقسى وأسوأ من سنة ١٩٦٧.. كان ذلك اليوم الاثنين في ٥ / حزيران يوماً لا يُنسى في حياتنا.. انطلقتُ من منزل الطالبات في شارع القصر العيني، إلى كلية الصيدلة، فالمسافة قريبة جداً بحيث كنا نمشيها يومياً.. كل الأمور اعتيادية.. صحيح أن جمال عبدالناصر أغلق «مضائق تيران» في مدخل البحر الأحمر، وطلب سحب قوات الأمم المتحدة المتمركزة هناك، لكن معظم الناس لم يكونوا يتوقعون الحرب.. بل إنني قبل يومين التقيت مع أحد أقاربنا من ضباط الجيش المصري وأكّد للحضور بشكل حاسم أننا . كمصريين وكجيش مصري . لا نريد الحرب، وإن إغلاق مضائق تيران وسحب قوات الأمم المتحدة هو فقط حركة تكتيكية ضد الاستعمار وأعوان الاستعمار وضد الصهيونية. ساعتها صرختُ بضيقٍ لماذا؟ لماذا لا تهاجمون القوات الإسرائيلية ما دمتم ترون حشودها؟ كان الجو معبّأ بطبول الحرب، ولكن هذا الضابط العسكري المصري ومن أعلى القيادات العسكرية، أكد لنا أنه لا نيّة للحرب عند مصر.. إذن ما هذا الذي يحصل؟ وخطيبي القادم من لندن عبر مطارات سويسرا وبعض الدول الأوروبية يؤكد له أنه رأى المئات بل وتحدث مع بعض القادمين إلى «اسرائيل» واعترفوا أنهم جميعاً «طياورن» جاءوا لقيادة الطائرات العسكرية والحربية الإسرائيلية، وأنهم جنود احتياط . فما الذي يجري إذن، إن لم تكن الحرب؟؟

ومع ذلك لم يشِ ذلك النهار بشيء.. وصلتُ كلية الصيدلة.. واقتربت الساعة من التاسعة، ولم يسمح لنا بدخول قاعة الامتحان.. وابتدأ الهرج والمرج في الساحات، وابتدأ اللغط والقيل والقال، ونحن لاهون بامتحاننا.. دقائق وأُعلن الخبر الذي كان سعيداً لنا في البداية، أليماً في النهاية.. انطلقت طائرات العدوّ الإسرائيلي تضرب أرض مصر.. وبدأ الهجوم الكاسح على مصر..

كل من عاش من جيلنا هذه الساعات الست وهذه الأيام السنة يعرف مرارتها وهو يستعيدها بذهنه، دقيقة بدقيقة وساعة بساعة..

عدنا إلى منزل الطالبات يملؤنا الزّهوُ والأمل بالنصر القريب، عدنا إلى محطات الإذاعة لنقلّبها، بل ثبتناها على محطة صوت العرب، لا أدري لماذا؟! لعلنا كنا لا نريد أن نسمع إلا أخبار الانتصارات!! كان الشوق للحرب يعادله الشوق للنصر والعودة إلى فلسطين المحتلة وقد تحررت!!

على علوّ توقعات النصر، كنا نصدّق كل كلمة نسمعُها..عشرات الطائرات الإسرائيلية بل مئاتها تدمرت.. جيشنا العربي المصري وصل إلى حدود تل أبيب وبدأ يدُكّها.. يافا أصبحت أقرب إلينا من حبل الوريد.. لمسنا النصر بأيدينا، ولم يبق إلا أن نعانقه..

كان لا بد أن نشاركَ في هذا النصر، فانطلقنا إلى مستشفى القصر العيني نقف وراء الطوابير للتبرع بالدم.. واتصلتُ باتحاد الطلبة أسالهم عن دورٍ لنا في هذا النصر المحقق حتماً.. وكان العشرات من الطلبة الوافدين يشعرون بما أشعر، ويتحركون كما أتحرك. وأعلن اتحاد الطلبة العرب عن فتح دورة للدفاع المدني فانطلقنا نشارك بفاعلية

وحماس مع هذا التدريب، ولما عدنا في المساء وقد اصطبغ لون وجهي بالأحمر لتعرضه للشمس طول النهار، ولما أخذتُ أضع عليه «اللبن الرائب» كوصفة شعبية لتخفيف احمراره أو اسوداده، وصل لإحدى زميلاتي هاتف من قريبها يهمس لها بأن الأخبار الحقيقية ليسَ كما نسمعه في إذاعة «صوت العرب» بل أمرٌ آخر !!

هل كان لأحدٍ أن يصدّق هذا «الهمس»؟ أليست هذه شائعة مضادة لخلق جو من الإحباط لإلهائنا عن الفرح بالنصر؟ أليسَ هذا هو ما كنا نسميه في اجتماعاتنا الحزبية بالطابور الخامس؟ هل يعقل أن يكون عدد الطائرات التي سمعنا أنها سقطت من جانب العدو، هي طائراتنا نحن العربية؟ لا وألف لا..

انطلقنا في اليوم التالي إلى نفس مكان التدريب لحمل السلاح، فنحن نريد دخول المعركة الحقيقية لنشارك بالنصر، ولكن «الهمس» كان قد علا وأصبح حديثاً يتداوله الجميع.. ولم نهتم، تابعنا أداء ما كنا نتصوره «مهماً جداً»، التدريب الرياضي للحصول على اللياقة البدنية استعداداً لحمل السلاح.. ولكن دون فائدة..!!.

في استعادتي لما حصل معي ومع أخواتي في الكويت في تلك الأيام.. رأيت التشابه للمشاعر والأحاسيس لأبناء هذا الجيل في كل بيت عربي.. قالت أختي ازدهار إنها كانت في منزلها عندما دقّ الباب دقّاً عنيفاً، وإذ بها أمام أختي الأخرى افتخار.. كانت افتخار مديرة لمدرسة المنهل في الكويت، فجنّدت كل ساحات المدرسة وقاعاتها للاستعداد للنصر وآثار الحرب.. اجتمعت مع النساء الفلسطينيات في الكويت وبدأت الإعداد للنصر ولا شيء غير النصر.. قالت لأختها، تعالي حالاً وأحضري ما تودين التبرع

به لدعم المجهود الحربي.. حتى الملابس المستعملة نحن في حاجتها.. أحضري مواد تموين كالمعلبات والحليب.. أي شيء، كل شيء ضروري ويمكن الاستفادة منه..

وعندما دخل زوج الأولى ليعلي الهمس الذي كان عندنا في القاهرة، كادت افتخار تضربه بصدره وتقول: كذب كذب أنت الطابور الخامس المُحبَط الذي لا يريد العمل لوطنه ولا أمته في ساعة «النصر «هذه..

في كل بيت عربي أُقيمت المناحات والعزاء للهزيمة المنكرة التي مني بها العرب..

ولما كان خطاب تنحي جمال عبدالناصر عن قيادة مصر والأمة العربية، اعترافاً منه بالهزيمة، لم يبقَ في صدورنا إلا الألم العميق.. العميق.. بالاعتراف بالهزيمة، ولم نكن نريد أن نعترف بها.. فقد كانت صعبة صعبة، صعبة.. خرجتُ لوحدي ودون زميلاتي في بيت الطالبات أمشي بلا اتجاه، أرفض الهزيمة وأبكي وأبكي.. ووجدت العشرات ثم المئات ثم الآلاف من المصريين يخرجون هم الآخرون من كل حدبٍ وصوب، بل قل . يهيمون على وجوههم . ويرفضون الهزيمة والاعتراف بها.. ومشى الجميع باتجاه مقر جمال عبدالناصر، ومشيتُ معهم نبكي انكسار القلب العربي، ورمز العروبة.. وطالبناه بعدم التنحي، وعدم الاعتراف بالهزيمة، بل بالإعداد للمعارك القادمة !!!.

وانقطعتُ في القاهرة لا أستطيع العودة إلى الضفة الغربية من الأردن، الجزء الثاني من فلسطين، الذي تم احتلاله في هذه الحرب الخاطفة.. لم أستطع العودة إلى بيتي ووالدتي وشقيقي خليل ومحمود في مدينة رام الله، فلقد احتل العدو الصهيوني رام الله والبيرة ونابلس والقدس، وباقي أراضي الضفة الغربية، بل واحتلّ شبه جزيرة سيناء من مصر وهضبة الجولان من سوريا !!

لقد اتسعت مساحة الكيان الصهيوني إلى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، وعاد الشعب الفلسطيني إلى اللجوء والنزوح مرة أخرى، ولكن بأسلحة أكثر تطوراً مما شاهدوه في حرب ١٩٤٨.. ابتدأ لفظ قنابل النابالم وحروق هذه القنابل تدخل قاموسنا !!.

وابتدأ الشباب العربي من الفلسطينيين والسوريين والمصريين والعراقيين وحتى من المغرب، يستعدون للحروب القادمة..حروب الفدائيين وحروب الاستنزاف.. وحروب الكرامة العربية.

وكانت هذه الأحداث فيما بعد المصدر الأساسي لكتابي للأطفال بعنوان «مهمة في الأغوار» عن هزيمة عام ١٩٦٧، ونصر معركة الكرامة في غور الأردن عام ١٩٦٨م.

جمال عبد الناصر

لقد كوّن «جمال عبد الناصر» فكري وعقلي، وربط على قلبي، فلم أحب زعيماً عربياً بعده.. لعلّهُ كان في مرتبة العبقريات الأربعة التي قرأتها يوماً للكاتب المصري «عباس محمود العقاد»، عن عبقرية أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.. وبقدر ما أحببتُ هؤلاء الخلفاء الراشدين، ومن بعدهم الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز، أحببتُ جمال عبد الناصر.

فقد امتد عهده الثوري من طفولتي إلى صباي، وإن أنسَ لا أنسى جلسات الاستماع تملأ مقاهي وبيوت الأمة العربية، لسماع خطبه الثورية بصوته الرائع، وبالطبع أولهم والدي ووالدتي رحمهما الله وأخواتي الأكبر مني، كل من حولي كان يحب «جمال عبد الناصر» وكنتُ ولا زلت أسترجع صوته، فأجده أروع صوت سمعته لكائن حي.

كان لجمال عبد الناصر حضور قوي في بيتنا، استمر معي إلى أن توفاه الله.. وكنا نفهم منذ طفولتنا مفرداته، وشعاراته : «الاستعمار وأعوان الاستعمار، الاستغلال، حقوق الفلاحين والعمال، السدّ العالي، الرجعية العربية والخيانة، النهوض والتقدم، الصناعات الثقيلة والصواريخ، الوحدة العربية، الحرية والكرامة..»

كم كتاباً عن جمال عبد الناصر قرأت؟ الكثير الكثير.. كم أغنية تتغنى بجمال عبد الناصر وإنجازاته حفظت، وعن ظهر قلب؟ كثير وكثير.. كم مظاهرة اشتركتُ فيها تأييداً لجمال عبد الناصر؟ كثير..

وعندما زرتُ السدّ العالي في مصر، وكان ذلك بعد وفاته بكثير، وبعد انزياح فترة التقليل من عظمته على يد «السادات»، عادت لفكري دفعة واحدة كل العواطف التي طالما حملناها له، نحن ما يمكن أن نسميه «جيل عبد الناصر».

لم يستطع السادات ولا غيره، وكان دائماً حولنا عشرات السادات، يحاولون التقليل من أهمية عبد الناصر، بل تعداد مثالبه وعيوبه.. أقول لم يستطع أحد منهم حجب شمس عبد الناصر في نفسي. حتى هزيمة حزيران القاتلة، لم تفقدني الإيمان به و بصدقه ونزاهته وإيمانه بالعروبة..

وإلى اليوم أنظر إلى كل الزعماء العرب، فلا أجد من ترتفع قامته إلى قامة عبد الناصر، لا بالشكل ولا بالصوت ولا بالإلقاء والخطابة ولا في النزاهة، أو بعد التفكير ووضوح الرؤية..

رحم الله جمال عبد الناصر فقد كان زعيم أمّة...

الاعتراف بالقسمة والنصيب

في ١٩٦٦/٦/٦ أُعلنت خطوبتي للمهندس حسام الدين طاهر الهدهد.. كان حسام يعمل في انجلترا حيث درسَ مهندساً في جامعاتها ومن ثمّ عمل في إحدى محطات الطاقة في مدينة «بمبروك «الإنجليزية.. وككل شباب العرب، كان يحضر لعمان لزيارة أهله، فيلحّون عليه بالزواج وإكمال نصف دينه.. فيقضي أيام أو أسابيع عطلته «يرى» هذه البنت أو تلك، «ويعاين» هذه المواصفات أو تلك..

في ذلك العام رشّحت له إحدى قريباته، فتاة كانت تعرفها منذ أيام المدرسة في مدرسة الزهراء اسمها «روضة» ولعلّ أقرب طريق لمعرفة أين هي الآن بعد مضي عشرات السنين، هو الاتصال بأختها انتصار في عمان..

وتم الاتصال، وتمّ أخذ موعد لزيارة عائلتي في رام الله بحضور» الشاب«و «الفتاة». كنتُ حينها في العطلة الصيفية للسنة الدراسية الثانية، حيث أنهيتُ سنتين دراسيتين وأمامي مشوار طويل لنيل شهادة الصيدلة، ثلاث سنوات، فهل يعقل أن أفكّر في الارتباط وترك الدراسة؟.. وأنا التي كنت أقنع نفسي كل يوم بأنّ الزواج مشكلة كمثل المشاكل التي أسمعها أو أقرأها على صفحات المجلات النسائية؟ لم يكن ذلك في فكري.. ولا أعتقد أن الشاب حسام القادم من انجلترا بعد قضاء تسع سنوات فيها: خمسة للدراسة وأربعة للعمل، كان يفكر في

ذلك أيضاً.. لعلّه كان يماطل أهله الذين كانوا يصرّون عليه بالارتباط وبالتالي العودة للأردن.

المهم.. جاء الخطيب مع أهله، وقدّمت لهم القهوة تماماً كما في الأفلام السينمائية، وتحدث الجميع، أهله، أهلي، أنا.. إلا هو، كان يقترب من زوج أختي ويتحدثان على انفراد وبصوت غير مسموع.. وبعد انتهاء الزيارة، غادر الجميع دون أي ذكر لأسباب الزيارة ومسبباتها أو نتائجها!!.

كان ذلك يوم ثلاثاء، وإذ بنا يوم الثلاثاء الذي يليه كنا نرتّب لحفل عقد القران !! وكان عقد القران بعد يومين : الخميس في فندق «الكارلتون» الواقع على ربوة بين رام الله والقدس.. وفي يوم الثلاثاء الذي يلي الحفل، سافر الخطيب إلى مقر عمله في انجلترا، وبعدها بأيام عدتُ أنا إلى القاهرة !!.

أي عاقل سيصدق ما جرى؟ كيف يرتبط الإنسان بهذا الرباط «المُقدّس» بمثل هذه السرعة.. عائلتان لا نعرف بعضنا بعضاً، وشاب وفتاة لم يلتقيا من قبل أبداً، يرتبطان لمدى العمر بمثل هذه السرعة؟.. ولماذا «عقد القران» الرسمي الموثق في الدوائر الحكومية.. ألا يكفي خطبة فقط؟ وكيف يمكن لشاب يعيشُ في بلاد الاختلاط والتعارف فيها سهل، أن يرتبط بفتاة لا يعرفُ عنها شيئاً؟

تلك ما نسميها في عاداتنا وعرفنا العربي «القسمة والنصيب» وذلك ما نعتقدُ في ديننا وأدبياتنا وتقاليدنا أنه من ترتيب الله سبحانه وتعالى..

بعد نكبة ١٩٦٧ عدتُ إلى عمان دون أيٍّ من أغراضي أو كتبي أو ملابسي، كنتُ أعتقدُ جازمة أنني سأعود لمواصلة تعليمي، ونيل شهادتي، وكان خطيبي هو الآخر قد عادَ للعمل في عمّان، حيث كانت ظروف العمل قبل نكبة حزيران تؤمّل بازدهار منقطع النظير في الأردن : ضفتيه الشرقية والغربية.. ولما تم انقطاع الأهل في الضفة الغربية وانسلاخها عن الأردن، فقد تغيرت المعادلة، فتم الزفاف في حفل عائلي بسيط، في بيت أحد إخوة زوجي، وسافرنا لشهر العسل إلى فرنسا.

لم تحضر أمي الحبيبة زفافي، ولا إخوتي الأصغر مني، خرجتُ من بيت أختي لا من بيت أمي كما يجب، لقد كان لهزيمة حزيران عام ١٩٦٧ تأثير مباشر على كل فرد من أفراد الأمة العربية .

وكانت المفاجأة تنتظرنا هناك في فرنسا، كنا نعتقد أنه لن يعرفنا أحد، ويعرف أننا في إجازة بينما وطننا ينزف دماً بعد نكبة حزيران.. وفوجئنا أن كل من عرفَ أننا من الشرق الأوسط يهنؤنا على «انتصارنا الساحق الماحق السريع على العرب في ستة أيام أو قل ست ساعات» ظناً منهم أننا من الإسرائيليين،.ولم نستطع للأسف الدفاع عن أنفسنا، فبلعنا العلقم وأتممنا شهر العسل !!.

كم كان صعباً عليّ فراق الجامعة.. وكم كنت في حيرةٍ من أمري، كيف أتركها ولا أكمل مشواري الجامعي فيها.. كل حاجاتي: كتبي، ملفاتي، ملابسي، حتى غرفة نومي وسريري كان لا يزال محجوزاً لي... كل أساتذتي ومعيدي الكلية كانوا يسألون عني.

زميلاتي اللواتي كنت معهن أكملن المشوار، «هدى العمري»، «سلمى حجازي» تخرجتا من كلية الصيدلة، و «عريفة الشاكر و «أمل البسطامي» وعشرات ممن كنت أعرف تخرجن من الكليات الأخرى...

إلا أنا...

كنتُ أستذكر كل صغيرة وكبيرة، كنا كطالبات نفرح لها ونعمل منها حكاية، فأحسّ بالحنين لمصر ولجامعة القاهرة ولكلية الصيدلة.. ذكريات ليس أقلها التمتع بأكل «اليوسفي أفندي» والكعك التوست مع الجبنة، ليس أقلها مشوار إلى حديقة الحيوانات أو الميريلاند.. ليس أقلها مشاهدة مسرحية لعبد المنعم مدبولي وأخذ صورة جماعية له مع الزميلات.. علبة شوكلاتة وصلت لإحدانا من الأهل في الأردن، نقيم عليها وليمة. علبة ماجي أو علبة محارم «كلينكس» تصلنا من الأهل في الأردن نقيم لها احتفالاً.. طالبات يسعدهن أي شيء.. حتى فترة الامتحانات الصعبة بسهرها وتعبها لها ذكريات سعيدة في نفسي..

وتمنيتُ على زوجي كثيراً، أن نسافر مرّة واحدة إلى مصر، عليّ أحمل لزميلاتي هذا الذي كان يسعدنا ويفرحنا، شوكلاتة، مربى، شوربة ماجي جرابين نايلون، صابون نابلسي !! أي شيء صغير أو كبير، ففي تلك الفترة من حياة مصر الاجتماعية والاقتصادية، وبعد حرب اليمن التي دخلها الجيش المصري، والتوجه الاشتراكي لتوزيع الثروة على المصريين كافة، بما فيهم ملايين الفلاحين، ومع توقف الاستيراد بشكل كبير لندرة العملة الصعبة... فقد انقطعت من الأسواق العديد من المواد الاستهلاكية، خصوصاً الثانوية منها، فكانت أوقية جوز أو لوز أو علبة محارم ورقية أو حتى كبريت يعني الكثير للعائلة والفرد المصري.. ولنا نحن الطالبات !!

المهم أنني لم أدخل مصر إلا بعد عامين أو ثلاثة من مغادرتي لها، فلم أقترب من كلية الصيدلة، أو منزل الطالبات «دار السعادة» في شارع القصر العيني !!

شعرتُ حينها أنني أعود إلى «اللامكان» وإلى «اللازمان» الذي كنته.

الآن وبعد خمسة وأربعين عاماً من الزواج، أحمد الله على عنايته، بحسن انتقاء زوجي لي، فلقد عشتُ معه حياة هانئة سعيدة بمجملها، وأنجبت منه خمسة أبناء: أربعة ذكور وبنتاً، أنجبوا هم بدورهم أحفاداً، قد أتحدث عنهم وعن الأحفاد لاحقاً..

والحقّ أن زوجي دعمني في مشواري العملي والثقافي والخيري.. كنتُ أقيم في «منزلنا» حفلات وندوات ولقاءات، حفلات خيرية لجمعية أصدقاء الأطفال، تحضرها العشرات من النساء الأعضاء والمؤازرات للجمعية، نجمع خلالها تبرعات لنشاطات الجمعية.

اجتماع تعريفي للسيدات المرشحات للانتخابات البرلمانية عام ١٩٨٩، بعد انقطاع البرلمان مدة طويلة. للسيدات «هيفاء البشير» و «جانيت المفتي» و «توجان فيصل» و «هدى فاخوري»، وقد حضرت المرشحات ومؤازراتهن ومعارفهن. وكان لقاءً مميزاً لمرحلة جديدة تشارك فيها المرأة الأردنية بالترشح والانتخاب.

و لقاءات مع رئيس اللجنة الشعبية لدعم الانتفاضة الدكتور «ممدوح العبادي» مع الشاعر المرحوم «عبد الرحيم عمر» والوطني «سامي الحلبي» وعشرات غيرهم، لوضع خطة لدعم الانتفاضة؛ إن ثقافياً أو إعلامياً أو مادياً.

ولقاء للمناضلة «ليلى خالد» تتحدّث عن تجربتها النضالية في المقاومة، وخطف الطائرات لتعريف العالم بحقّنا في أرضنا السليبة.. ولعلّ هذا اللقاء قد دقّ الجرس في دائرة المخابرات، فلمّا كان اللقاء الذي يليه بحضور المناضلة الراحلة الغالية على قلوب معظم العاملات في الحقل السياسي والاجتماعي والإعلامي: السيدة «عصام عبد الهادي»، حضر رجال الأمن على البوابات الرئيسة في المنزل، ومنعت السيدات من الدخول وألغي اللقاء!!

كنا قد أعددنا لهذا اللقاء قبل أيام في اجتماع خاص عقدته مجموعة من السيدات في منزل السيدة «عصام عبد الهادي»، بمناسبة الذكرى الخامسة للانتفاضة، وقررنا في الاجتماع أن يكون اللقاء أو قل الحفل في منزلي، حيث المساحة الأكبر ووضعنا برنامجاً خاصاً للاحتفال، وصل إلى المخابرات فقررت إلغاء اللقاء!!

كم من النشاطات والاجتماعات دعتنا إليها السيدة المناضلة «عصام عبد الهادي» في بيتها.. كم فنجان قهوة مع سكر ودون سكر قدمت المناضلة «عصام عبد الهادي»، لضيفاتها من سيدات المجتمع : الممثلات للأحزاب والنقابات والجمعيات واللجان، أو المستقلات؟

كم لخّصت قرارات هذه الاجتماعات، ووفقت بين آراء السيدات الحاضرات، ثم تابعت التنفيذ؟

كم قرأت لنا شعراً من الذي كانت تحفظه وترده في السجن مع السجينات الفلسطينيات في سجون العدو الإسرائيلي حيث أمضت جزءاً من زهرة شبابها بين جدرانه؟

كم و كم ناضلت وألقت الخطب في المحافل العربية والأجنبية، وحتى هيئة الأمم المتحدة دفاعاً عن قضيّة فلسطين !!

رحمها الله.. لقد كانت امرأة عن خمسين ألف امرأة أو يزيد !! وظلت حتى وفاة ابنها، فلذة كبدها، تفتح بيتها في كل المناسبات القومية والوطنية وحين تدعو الحاجة لرفع الصوت على ما يجري على أيدي الصهاينة، وما أكثر هذه المواقف!! وهذه الحاجات !!

أفتقدها كل يوم، وكل ما دعت الحاجة إلى جمع الكلمة للدفاع عن هذه الأمة، وفي كل اعتصام أو مظاهرة : لقد كانت السند والظهر للمرأة العربية وللقضية الفلسطينية.

الخلية الحزبية تنشط من جديد

عندما اعتقلت «عائشة عودة»، و«لطيفة الهواري»، و«رسمية عودة «من بيوتهنّ في رام الله والبيرة بعد الاحتلال.. وعندما أودعن سجون العدو، بدأ تعذيبهنّ الجسدي والنفسي. وعندما سمعتُ أن عيني عائشة عودة قد تأثرتا وقد تصاب بالعمى، وأنها قد اغتصبت وضربت؛ أحسستُ بالخيانة والألم.. كنت وعائشة على مقعد دراسة واحد وفي خلية حزبية واحدة، وكانت لطيفة الهواري مسؤولة عن هذه المجموعة، توزع علينا المسؤوليات والنشرات والمواقف والقرارات.. وقد بقيت كلتاهما وعدد كبير من الفتيات في مدن وقرى أخرى في فلسطين بعد الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧.. وقمن بنشاطات ضد الاحتلال.. فتم اعتقالهنّ وزجّهنّ بالسجون وتعذيبهنّ، كي يكنّ عبرة لمن يعتبر..

لم تكن تجربة اعتقال الفتيات والأطفال قد انتشرت عند العدو الصهيوني بعد، ولم تكن أرقام المعتقلين بشكل عام قد توالت هذه المتواليات الهندسية اللانهائية، لم نكن نسمع أن سيدة قد تلد في السجن وتسجن مع ابنها، أو أن فتاة قد تعرّى أمام جلاديها وأقاربها.. صحيح أننا كنا ننادي بالمقاومة وخيار البندقية، وصحيح أن حركة فتح والجبهة الشعبية وعدداً من فصائل المقاومة، كانوا قد بدأوا العمل العسكري ضد «الكيان الصهيوني» إلا أننا كنا في عمان لا نزال في بروجنا العاجية نناقش الاحتلال والمقاومة، ولا نتوقع آثارها المباشرة علينا..

لذا وقع خبر اعتقال زميلاتي، وعشرات ممن أعرفهن بالاسم فقط،عليَّ كالصاعقة، وأخذتُ عهداً . لم أوفِ به إلا مدة بسيطة . أن لا أضع الكُحل في عيني لأجل خاطر عيون عائشة.. وتتبعتُ عن بعد .ولمدة بسيطة أيضاً .هؤلاء الأسيرات في سجون العدو.. ذلك أنني كغيري من الفلسطينيين والعرب لا زلتُ أتأثر بالحدث حال وقوعه، ثم أتناساه مع الأيام.. فماذا فعلنا اليوم لأحد عشر ألف أسير منهم على الأقل ٨٠٠ امرأة و ٣٠٠ طفل في سجون العدو؟ ماذا نفعل لبيوتهم التي تهدم بعد اعتقالهم، ولعذابات أهليهم بعد فراقهم؟

أذكر أنني عندما زرتُ «فلسطين «المحتلة عام ١٩٤٨والضفة الغربية المحتلة عام ١٩٦٧، وكان ذلك لأول مرّة بعد غياب دام خمسين عاماً عن الأولى وثلاثين عاماً عن الثانية، أي عام ١٩٩٧، أخذتني السيدة المناضلة، سنديانة فلسطين المرحومة «سميحة خليل «إلى احتفال خاص في نابلس لمجموعة من المناضلات اللواتي أُفرج عنهن من سجون العدو.. يومها كان العنوان الذي وضعته أنا لهذا الحفل التكريمي لهؤلاء المناضلات هو: «المعاناة النفسية للمعتقلة» معاناة من أهلها، ومن المجتمع الفلسطيني ومن العرب بشكل عام، وعدم اهتمام من الهيئات النسائية، وجمعيات حقوق الإنسان، والأحزاب ومنظمات المجتمع المدني بهن وبالأسرى بشكل عام، والأطفال بشكل خاص.

يومها أحسست بتأنيب الضمير تجاه هؤلاء الأسرى مما دفعني لاحقاً أن أفرد كتاباً للأطفال بعنوان «السجين الفنان» يحاكي تجربة سجن أوّل طفل فلسطيني في سجون العدو الإسرائيلي، وأهديتُ الكتاب :

× إلى «زهدي العدوي» أصغر وأول طفل سجين فلسطيني في سجون العدو. وقد حكم عليه بالسجن خمسة وعشرين سنة لانضمامه إلى الأشبال.. والذي أصبح فناناً رغم سنوات سجنه الطويلة.

× إلى «أحمد الهدهد» سجين العائلة في نابلس، وقد سجن بعد عام ١٩٦٧ وفقد نظره على أيدي جلادي الاحتلال.

إلى زميلتي على مقاعد الدراسة «عائشة عودة»، التي كانت أولى سجينات الاحتلال ممن أعرف بعد عام ١٩٦٧... وأولى من تحررن من سجونه في عملية تبادل الأسرى.

إلى أرواح راسم حلاوة وعبد القادر أبو الفحم وعلي الجعفري وآخرين من النساء والمناضلين «.

لقد تم الإفراج عن عائشة عودة ولطيفة الهواري وما ينوف عن ٨٠٠ سجين فلسطيني منهم أحد أقارب زوجي؛ المناضل «أحمد الهدهد «، وهذا الطفل الصغير وقد كبر «زهدي العدوي» في عملية تبادل، كانت الأولى من نوعها مقابل اثنين من الجنود الإسرائيليين اعتقلوا في جنوب لبنان.

لا زالت علاقتي بعائشة عودة جيدة حتى اليوم وأتصل بها في قريتها «دير جرير» قرب رام الله على مستوى شخصي.. أما الروابط الحزبية فلقد ذهبت وذابت مع الأيام والأحداث.. وكم تأثرتُ بقراءة كتابيها عن تجربتها في السجن والاعتقال.. الأول «أحلام بالحرية» والثاني بعنوان «ثمناً للشمس» كتابان بل ملحمتان جديرتان بالقراءة لتجربة حيّة في سجون العدو..

سميحة خليل / سنديانة فلسطين

عندما يذكر اسم «سميحة خليل»، لا يسعني إلا أن أقفَ احتراماً لهذه المرأة المناضلة رحمها الله.. لقد كانت علاقتي بها منذ حوالي عام ١٩٦٠ أي قبل تخرجي من المدرسة الثانوية، وأثناء دراستي في مدرسة رام الله الثانوية للبنات، ومع معلمتي المناضلة «نهيل عويضة». في تلك الفترة اقترحت «ست نهيل» إنشاء جمعية خيرية للسيدات في رام الله والبيرة، وتم الاتفاق على عقد أول اجتماع تأسيسي للجميعة في منزل أختي كاملة زوجة السيد سعد شعبان رحمهما الله، وحضرتُ مع والدتي «هدى» الاجتماع، وأسسنا الجمعية، وانتخبنا فيما بعد السيدة سميحة خليل رئيسة لها، وباقي الحضور أعضاء فيها، واتفق على تسميتها «جمعية إنعاش الأسرة» ولا تزال الجمعية إلى يومنا هذا تعمل بكفاءة عالية لدعم الأسرة في فلسطين، رغم تعرضها لكافة أشكال المعيقات المالية والإدارية والجبروت الإسرائيلي المستبد لقهر الإنسان الفلسطيني..

عندما زرت فلسطين للمرة الأولى كما قلت في عام ١٩٩٧ زرت مرافق جمعية إنعاش الأسرة مع رئيستها على مدى السبعة والثلاثين عاماً، التي تفصل يوم تأسيسها وزيارتي لها، ورأيتُ بنفسي مصنعاً للبسكويت وللمواد الغذائية المختلفة، ومركزاً للتطريز الفلاحي التراثي لدعم المرأة العاملة، ومركزاً للأيتام واليتيمات، ومركزاً ثقافياً يوثق التراث والتاريخ الفلسطيني، ومركزاً للأبحاث والدراسات يُصدر الكتب والنشرات..

وغير ذلك كثير.. ولتحقيق كل ذلك قامت لجنة أسمت نفسها «أصدقاء جمعية إنعاش الأسرة» في عمان لدعم الجمعية الأم، كانت من أبرز أعضائها زميلتي «سائدة خليل» ابنة المناضلة سميحة خليل، وعشرات من الزميلات العزيزات أذكر منهن: «دُمية الدجاني ومُهجة الترتير ولميس الجعبري و فريال المهتدي».

ومما يحسب للراحلة المناضلة سنديانة فلسطين «سميحة خليل «أنها رشحت نفسها لرئاسة دولة فلسطين أمام الراحل «ياسر عرفات»، وخاضت الانتخابات وهي تعرف النتيجة، بل وترحب بها، ولكنها كانت تؤكد للعالم كله ديمقراطية الشعب الفلسطيني وحضارته، وقبوله للمرأة بالعمل على قدم المساواة مع الرجل..

رحم الله شهداءنا، وحرر أسرانا من سجون العدو.

الحقـــوق

عندما تعذر عليّ العودة لإتمام دراستي في القاهرة، بسبب حرب ١٩٦٧، ثم زواجي من خطيبي حسام الدين الهدهد، كان عليّ أكاديمياً أن أتجه اتجاهاً آخر، فقررت الدراسة في الجامعة الأردنية «كيمياء تطبيقية «حيث لم تكن كلية الصيدلة قد افتتحت بعد.. ولكن ظروف الإنسان تتحكم به ولا يتحكم بها، فقد عمل زوجي في مدينة العقبة كمهندس مع شركة فرنسية للإشراف على بناء وتعبيد طريق «أتوستراد» من العقبة للأغوار الوسطى.. وهكذا سكنتُ العقبة المدينة التي كانت حينها قرية كبيرة.. وكان عليَّ أن أملأ فراغ حياتي، بعد الحياة الحافلة في القاهرة والجامعة: بالقراءة و/ أو العمل وقدّمت أوراقي للعمل في مدرسة العقبة الثانوية للبنات، وكنت كلما قدّمت شهاداتي العلمية، وبأنني سنة ثالثة صيدلة، يعزّ على مَنْ أمامي من موظفين ومسؤولين أن أنقطع عن الدراسة، لعلّها أسباب مالية، فيتبرعون بالسعي لتذليل هذا السبب.. فلمّا وُظفت على ملاك وزارة التربية والتعليم معلمة للمواد العلمية في العقبة، كنتُ حديث سكان العقبة، كما كنتُ من قبل حديث العائلة والأقارب.. الجملة المكررة دوماً : يا حرام.. كيف تتركين الصيدلة، وتتجهين للتعليم.. ولمّا فاضَ الكيل بزوجي وطلب مني عدم العمل، اتجهتُ للدراسة بالمراسلة لجامعة بيروت العربية لأحصل على الشهادة التي طالما كنتُ أسعى لنيلها، لتحقيق مطلب أساسي كنت أنادي به، وهو تسليح المرأة بالعلم لمواجهة ظروف الحياة..

وسَجّلتُ في الجامعة العربية في بيروت، وهي الجامعة الوحيدة عندئذ التي كانت لا تُلزم الطلاب بالدوام على مقاعدها لنيل الشهادة، وبدأتُ الدراسة وقد كان عندي طفل واحد عمره سنة واحدة وهو ابني خالد. و في السنة الرابعة من كلية الحقوق، وقبل الامتحانات بشهر، دخلتُ المستشفى لولادة ثاني أبنائي وهي ابنتي «شادن»، يومها ومع شنطة المستشفى التي تعدُّها الأمُّ الحامل قبل دخول المستشفى، وضعت كتابين من كتب الدراسة: القانون التجاري والقانون العام، وكنت أخفي الكتب عن أعين الزوار والمهنئين، فإذا ما كنت وحدي أخرجتُ الكتاب من تحت المخدة وبدأت أدرس!!

وعندما ضبطتني والدتي متلبّسة بهذه الجريمة، أخذت الكتاب مني بقوة، فالمرأة «النفساء» يجب أن لا ترهق عينيها بالقراءة : كانت تحنو عليّ وتقول المرأة النفساء يجب أن ترتاح أربعين يوماً، حتى تعود إلى وضعها الطبيعي و عظام جسدها الرخوة، ورحمها المفتوح، قوة شعرها، نور عينيها.. كل ما فيها بحاجة إلى الوقت والغذاء الجيد حتى يعود لقوته..

رحمها الله.. ما ألذ طعم مرقة الدجاج مع الخبز المقطع من يديها.. كل يوم وعلى مدى أربعين يوماً كانت فتة الدجاج في الساعة العاشرة صباحاً، وجبة إضافية تفرضها عليّ أمي.. رحمها الله

المهم أنني بعد الولادة سافرتُ مع أمي وابني وابنتي ذات الشهر الواحد إلى بيروت لأقدم امتحانات السنة النهائية وأحصل على الشهادة في الحقوق !! وحصلتُ عليها، وتناسيت كلية الصيدلة والتعليم والعمل.

ولما سجلّت لدراسة الماجستير في الجامعة اليسوعية في بيروت، ابتدأت الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٢ ووئدت الفكرة..

ولايزال حافز التعلّم يتحرك في أعماقي إلى الآن.. وكم تشجعتُ وذهبت للجامعة العربية للتسجيل للماجستير، وكم فشلتُ بمجرد التسجيل..

لعل القدر كان «يخبئ» لي مجرى حياة أخرى وهي الكتابة والتأليف..

في العقبة

كانت العقبة ثغر الأردن الباسم عام ١٩٦٧، حين سكنتها، مدينة صغيرة، وكان من غير اللائق لنسائها النزول إلى الأسواق، أو الجلوس على شواطئ البحر فيها، حتى فندق العقبة الحكومي. من أوائل الفنادق هناك. معظم نزلائه من عمان أو أجانب، وقليل جداً من أهل العقبة الأصليين..

لم يكن في العقبة إلا مكتبة واحدة هي مكتبة اليماني لصاحبها المثقف والحزبي «أحمد اليماني». وكان زوجي حسام الدين الهدهد يذهب للمكتبة بمعدل مرّة أسبوعياً، يحضر لي منها مجموعة من الكتب، يساعده في انتقائها صاحب المكتبة المثقّف.. في تلك الفترة تعرّفتُ على الأدب الروسي، ليوتولستوي ودستوفيسكي ومكسيم جوركي، وتعرفتُ على الأعمال العالمية في الأدب والسياسة والاقتصاد.. كانت فترة ثريّة، ساعدني فيها هدوء مدينة العقبة مقارنة بالحركة الدؤوبة في عاصمة الكنانة : القاهرة، فلا زيارات ولا اجتماعات ولا أسواق.. حتى السوق كان زوجي لو أردت شراء بلوز أو حذاء يحضر لي من الدكان عدداً من البلايز والأحذية، أنتقي منها ثم أعيد الباقي !!

اليوم والعقبة منطقة اقتصادية متطورة، يذهب إليها سكان عمان للتبضع والشراء، وقضاء أجمل الأيام على شواطئها من الحدود الغربية، وحتى الحدود الشرقيّة، في عشرات الفنادق السياحية التي افتتحت تلبية

لهذا التطور.. هذا التطور الذي أراه بطيئاً جداً، خصوصاً إذا ما قارناه بتطور مدينة دبي المذهل.

لا زلت أحتفظ لأهل العقبة بكل ذكرى حميمة و جميلة.. لقد احتضنتني بعض العائلات ذات صلة القرابة مثل عائلة «عرموش»، و«آل الأدهم «وكنتُ زميلة مميزة عند كل معلمات مدرسة بنات العقبة الثانوية، كأصغر معلمة جامعية تدرّس في المدرسة. وكنت معلمة أثيرة لدى العديد من الطالبات المراهقات، يرون في المعلمة النشيطة المعطاءة التي تتحدث عن موضوعات خارج مجتمع العقبة الضيق.

لا زلت أرى الطالبات اللواتي درّستهن، فأرى في عيونهن كل الحب والتقدير، فأقابلهن بمثل ذلك وأكثر..

لم أعمل في التدريس في العقبة إلا سنة واحدة، بعدها أنجبتُ ابني الأول خالد، وطلب زوجي مني التفرغ وعدم العمل !!

كثيراً ما تضع العادات والتقاليد عند أسرنا العربية العقبات أمام رغبات النساء تحديداً، بالعمل والإنتاج والعطاء.. وأنا لم أكن يوماً أرغبُ في حياة الدّعة والفراغ، ولم أكن يوماً أحب البكاء على الأطلال، وأن الظروف لا تسمح لي بكذا أو كذا.. كنتُ أؤمن ولا زلت أن الله إذا أقفل باباً فتح باباً آخر.. وإذا سدّ مجرى ماء، فتح قناة أخرى.. وكنتُ أستعدّ دوماً لفتح قنوات مياه جديدة للعطاء.

الكتابة للأطفال

في عام ١٩٧٩ حددتُ موعداً لزيارة الدكتور «عبدالرحمن ياغي» في بيته في ناعور.. كان الدكتور عبدالرحمن ياغي رئيساً لرابطة الكتاب الأردنيين، وكانت زوجته الفاضلة السيدة «حياة ملحس» تعمل مديرة في معهد ناعور التابع لوكالة الغوث الدولية «الأنروا». ذهبتُ ووالدتي «هدى» و مسودة عملي الأول للأطفال بعنوان «في أحراج يعبد».. واستقبلنا الدكتور وعقيلته ألطف استقبال، وقرأت بين يدي الدكتور المخطوطة، فأثنى عليها الثناء كله، بل وكتب مقدمة لهذا الكتاب الأول من سلسلة الكتب التي أطلعته على نيتي إصدارها، فكانت مقدمة رائعة، أعطتني دفعة قوية للعمل والإنجاز. وقد جاء في المقدمة ..

«هذا الجهد الكريم..

ليس من السهل.. بعد كل هذا الذي تسرّب إلى نفوسنا، وترسّب فيها، وبعد كل هذه الشوائب التي تراكمت في عروقنا، وبعد كل هذه العتمة التي قبعت في الجوانح بفعل ما ألمّ بنا من أحداث.. ليس من السهل التخلص من كل هذا، وتنقية النفس، وتصفية العروق، وإنارة الجوانح، لكي نرتفع إلى عالم الطفولة.. نلجه، ويتقبلنا في رحابه.. إنه عالم قلما نتعامل معه على الوجه الأكمل إلا في المناسبات.. لكنا حين ندخله نجده مذهلاً مشرقاً رائعاً نقياً زكياً !

ولقد أرادت السيدةالكريمة (روضة الفرخ الهدهد) أن تدخل هذا العالم النقي الزكي الصافي، وأن تقيم بينها وبينه علاقة، وأن تحميه من الرواسب والشوائب والعتمة، وأن تضيء له السبيل، فارتفعت بنفسها إلى مستوى الطفولة، وعملت على أن تصحب الناشئ العربي في رحلة الحياة، وأن تملأ جوانحه بمواقف بطولية سويّة ليس فيها انتفاخ، وأن ترسّخ فيه حب التضحية والبذل والعطاء، وحب الأرض والإنسان والوطن، وتحبّب إليه سير الأبطال ومواقفهم الإيجابية، وتهيء للطفل العربي ركنه الدافئ الذي يحتضنه في جو صحي منذ الخطوة الأولى في درب الحياة».

إن الدكتور عبدالرحمن ياغي ومن خلال رئاسته رابطة الكتاب الأردنيين، ومن خلال عمله كأستاذ في كلية الآداب في الجامعة الأردنية، قسم اللغة العربية، كان ولا زال – ربنا يعطيه الصحة والعافية – مثال الأب والأخ والأستاذ لمن كان في حاجته أدبياً، ثقافياً، وطنياً أو حتى معنوياً.

وقد استمرت صداقتنا العائلية، زوجي وأنا، للدكتور وللسيدة الفاضلة حياة إلى يومنا هذا، ولا أذكر أن أحدهما بخل بالسؤال عن صحة الوالدة في حياتها، أو صحة زوجي وأولادي، كما أنني واصلتُ عرض مخطوطات كتبي عليه قبل إصدارها، لأخذ الرأي والمشورة، وكم عدّل وصحّح واعترض ووافق..

فله ولأمثاله كل الشكر والتقدير

عندما بدأت الكتابة في ذلك العام عن النضال العربي، والفلسطيني بشكل خاص ضد الاحتلال الإسرائيلي لأرض فلسطين؛ اعتمدت على المراجع المتوفرة في المكتبة عن يوميات هذا الصراع وتاريخه.

أمضيتُ ستة أشهر كاملة في البحث في المراجع «المكتوبة»، ثم انتقلتُ بعدها للمراجع «الشفوية»، و كل كتاب أصدرته، وعددها أربعة وعشرون كتاباً من سلسلة حكايات بطولية للأطفال، أثبتُّ مراجعه في نهايته. ولكنني تأثرتُ أكثر ما تأثرت بكاتبين عظيمين، أرّخا لهذه القضية هما :

الكاتب المناضل المرحوم «أكرم زعيتر»، و الكاتب الشهيد «صالح بويصير» رحمهما الله فقد قدّما لهذه القضية الشيء الكثير..

والمناضل أكرم زعيتر فلسطيني من مدينة نابلس في فلسطين والشهيد صالح بويصير ليبي من ليبيا. وأعرف أن العودة للشبكة العنكبوتية لمعرفة تاريخ أي منهما وآثاره وكتاباته أمر سهل، ولكنني أذكر أن لأكرم زعيتر دوراً كبيراً في حفظ وتأريخ النضال الفلسطيني، مثله مثل المؤرخ «عارف العارف» و «محمد عزة دروزة» وغيرهما، وعندما كان أكرم زعيتر في إيران سفيراً للأردن فيها، ترجم بعضاً من كتاباته عن يوميات النضال الفلسطيني ضد الاستعمار الإنجليزي وضد هجرة اليهود إلى فلسطين. ترجمها إلى اللغة الفارسية كتابة وقولاً، و بذلك كان له الفضل الأكبر في حفظ هذا النضال وبالتالي تأثيره على مواقف إيران تحديداً من فلسطين. وبالتأكيد ستظل هذه الكتابات للأجيال القادمة، تنير لهم طريق النضال المستمر ضد الاحتلال الاسرائيلي كما أنارته لي أنا من قبل.

أما الكاتب الليبي صالح بويصير وكتابه «جهاد شعب فلسطين خلال خمسين عاماً «فهو يؤرخ وبشكل رائع لنضال هذا الشعب قبل النكبة، وكم أثّر فيَّ هذا الكتاب، ولكنه بالمقابل أثار العدو الصهيوني، فقام بقتله وإسقاط الطائرة الليبية التي كان على متنها عام ١٩٧٣، حيث كانت

الطائرة في رحلة لها من طرابلس الغرب في ليبيا إلى الأردن. وعلى متنها بالإضافة لهذا الكاتب العشرات من الأفراد المدنيين رجالاً ونساءً وأطفالاً!!

تقول صديقتي «لطفيّة دلال أبو حرب «أن والدتها كانت على متن هذه الطائرة، تحملُ ابن لطفيّة الصغير ذا الأعوام الثلاث لأمِّه التي تنتظرهما في مطار عمّان، ولكن دولة العدو الإسرائيلي أطلقت على الطائرة صاروخاً أسقط الطائرة بمن فيها من ركاب !!

وإذا كنا كعرب قد نسينا الحادثة ولم نذكرها سواء في كتاباتنا أو إعلامنا، ولم نُقم الدنيا ونقعدها على واحدة من سلسلة من الجرائم الإسرائيلية بحقِنا، إلا أن صديقتي لطفيّة تظل تذكرنا بها كونها فقدت ابنها وأمها بالإضافة لفقدان مدينتها حيفا ووطنها فلسطين من قبل. تقول لطفيّة : أعيدوا لي أياً من هذه الأيقونات الثلاثة وطني و أمي أو ابني، وسأسامح بالإثنين الآخرين.. ولن أسامح !!!

أعود للكاتب الليبي الشهيد صالح بويصير لأشكره مع دعواتي له بالرحمة والجنة ودار الخلد مع النبيين والصدّيقينن والشهداء، فلقد أنصف شعب فلسطين بتأريخه لنضالهم ضد الاستعمار الانجليزي والاحتلال الصهيوني. هذا النضال المستمر إلى اليوم، بأشكاله النضالية المختلفة.

إن المراجع المتوفرة للباحث، أي باحث متخصص أو عادي، في قضيتنا العربية المركزية، قضية فلسطين قليلة.. وإن الباحث عن القدس مثلاً سيجد مقابل أي مرجع عربي عشرات المراجع الأجنبية، التي تحمل وجهة

نظر الصهاينة عن هذه المدينة منذ بنائها وإلى اليوم، بل إنهم يسوّقونها دوماً على أنها بنيت على يد سليمان حيث هيكله المزعوم فيها.. وكم نحن بحاجة إلى كتب ومراجع تدحض ذلك، وتثبت أن القدس عربية بما لا يقل عن ألفي سنة من ظهور الديانة اليهودية.

فمن سيتصدّى لذلك يا ترى؟!

في إحدى ندوات رابطة الكتاب الأردنيين، وأثناء الحديث عن هذه الجزئية، اقترح الدكتور «عبد الرحمن ياغي» أن يتم ترجمة كتبنا ومراجعنا العربية إلى اللغة الإنجليزية أولاً بأول، فالترجمة من وإلى اللغة العربية جزءٌ من نضالنا الحضاري.

في مسيرتي العلمية مواقف لا يمكن أن أنساها لجمالها وتأثيرها في النفس والروح.. قرأتُ يوماً في الجريدة خبراً لم أعرفه من أحد.. خبر فوزي بجائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عن كتابي الموسوم «قافلة الفداء» وهو رقم (٣) من حكايات بطولية للأطفال.. وقرأتُ أيضاً أنه اختير من بين ثمانية وخمسين كتاباً على مستوى الوطن العربي كله.. وأن الكتاب الذي نال معه الجائزة أيضاً في تلك المسابقة هو للكاتب المصري «صنع الله إبراهيم» بعنوان «عندما ولدت الملكة»، ولم يكن أحد قد اتصل بي رسمياً لإبلاغي الأمر..

والحق أن نيل أي جائزة هو أمر مهم جداً، لأي شخص، وهو مهم لي، فأنا شخصياً. مثلي كمثل الناس كما أعتقد. أحب المديح والثناء على ما أقدمّهُ من أدب وَرَقي أو مسرحي.. وقد جاءت هذه الجائزة دون مقدمات.

ولما كان سفري قريباً إلى مدينة بولونيا في ايطاليا لحضور معرض كتب الأطفال، فإذا بي أمام الجناح المصري أتعرف على الكتاب المصريين القادمين للمعرض، الكاتب المعروف في أدب الأطفال «أحمد نجيب»، والكاتب الرائد «عبدالتواب يوسف»، والكاتب «يعقوب الشاروني»، وعدد من الإخوة والأخوات المصريين. وكانت الأجنحة العربية الأخرى قريبة من بعضها بعضاً وأهمها، بل وأغربها الجناح الليبي الذي لم يكن يحتوي إلا على «الكتاب الأخضر» لمؤلفه العقيد «معمّر القذافي».. ثلاثة أو أربعة من الرجال «ذوي الأكتاف العريضة والطول والتجهّم» لعرض هذا الكتاب في معرض دولي عالمي لكتب الأطفال !!.

المهم أن العاملين في الجناح المصري، لمّا عرفوني وعرفوا أنني أنا التي نلتُ في ذلك العام (١٩٨٣) جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أخذوا يرحبون بي ترحيباً مختلفاً ورائعاً، وظلّوا يرددون مقولة «دي اللي خدت الجايزة «لكل من في المعرض من الكتّاب والموظفين في أجنحتهم.. ولم أحس بأهمية هذه الجائزة ولا أهمية نيل الجائزة إلا هناك وهم يرددون «دي اللي خدت الجايزة»، ومن ذلك الوقت تمتنت أواصر الصداقة بيني وبين هؤلاء الكتّاب المصريين والعاملين في مجال أدب الطفل، وأصبحتُ أُدعى إلى مؤتمرات ثقافة الطفل في مصر، حيث التقيتُ مراراً مع المرحومة الدكتورة الرائعة «سهير القلماوي» التي كانت ترعى جمعية كتاب الأطفال وتحضر جميع لقاءاتهم، وقد أثنت ثناءً ملفتاً للنظر على الوفد الأردني، وكان في عضويته آنذاك الدكتور «عماد زكي «والشاعر» محمد جمال عمرو «وأنا..

كما التقيتُ مراراً، وبقيت صداقتنا إلى أن توفاها الله مع «ماما لبنى» «نُتيلة راشد»، حرم الكاتب الكبير الصديق «عبدالتواب يوسف»،

وقد ذهبتُ معها إلى مبنى مؤسسة الأهرام، حيث كانت رئيسة تحرير مجلة «سمير» للأطفال، فتعرفتُ من خلالها على كادر مجلات الأطفال المختلفة.

في مصر، ومع المصريين يشعر المرء بأهمية عمله وعطائه، وتقابله مؤسسات صحفية مقروءة ومسموعة ومرئية لتقديم ما يحمل من فكر وإبداع وعطاء.. وأذكر أنني وقد عدت إليها بعد غياب سنوات، عندما كنت على مقاعدها الدراسية في جامعة القاهرة، قد أجريتُ العديد من اللقاءات الصحفية والإذاعية والتلفزيونية، فقد كنتُ أحمل دراسة معمّقة لأدب الأطفال في الأردن وفلسطين، وتاريخ هذا الأدب، ومضمون هذه الكتب المقدمة للطفل وكانت مادة ثريّة للحديث عنها وحولها. وكان اسمي الثلاثي «روضة الفرخ الهدهد» يثير استغرابهم ويحللونه ويفصّلونه.. فهم شعب عريق مثقف ذو روح مرحة وصاحب نكتة، متواضع يؤمن بالعروبة، ويحسن استقبال الضيوف العرب، سواء من الأردن أو الكويت أو تونس أو العراق، وما أكثرهم في المؤتمرات..

هناك في مؤتمرات القاهرة، التقيت بكتّاب عرب مرموقين وكان من العراق الشاعر «فاروق سلوم» مدير «دار ثقافة الأطفال» في العراق في عهد «صدام حسين». كانت الدار أهم دار لنشر كتب الأطفال على مستوى الوطن العربي كله، إن باستقطاب أفضل الرسامين وأفضل الكتّاب والشعراء العرب، أو بحسن الترجمة واختيار أفضل النصوص العالمية، أو غزارة الإنتاج لكافة الفئات العمرية. لقد كانت هذه الدار تطبع كتب الأطفال بكافة الأحجام وأفضل أنواع الورق المقوى والعادي، وتوفرها بأرخص الأسعار في كافة أرجاء الوطن العربي.

ومن أهم كتّاب «دار ثقافة الطفل في العراق» الكاتب العربي الفلسطيني، الأردني «شريف الراس» رحمه الله.. وقد تعرفتُ إليه وإلى إنتاجه الغزير الموجه للطفل العربي، الذي يؤكد فيه على وحدة هذه الأمة ووحدة آمالها وأحلامها ومستقبلها..

لقد خسرنا. كعرب. بخسارة العراق بعد احتلاله من قبل الأمريكيين، الكثير الكثير.. وخسرنا كثقافة الطفل، هذه الدار وما قدمته للأطفال العرب.

هل أقول إن الحرب على العراق أعادت العراق والأمة العربية مائتي سنة إلى الوراء؟؟ أم أكثر؟؟.

مع الدكتور احسان عباس

جاءني صوته على الهاتف يحييني.. قال لي وقد عرضتُ عليه كتابي الثاني، وخطتي في العمل.. قال : «كنتّ مشاركاً بمؤتمر حول التاريخ الحديث لبلاد الشام، وما تقومين به سيدتي، أهم من كل «ما يقال» في مثل هذه المؤتمرات، إنك تقدمين للطفل هذا التاريخ، حيث تعجز المؤتمرات عن الوصول له «.. تمنيتُ يومها لو استطعت تسجيل ما يقوله الدكتور إحسان عبّاس، فالكلمة عند هذا الإنسان العملاق في علمه، العميق في فكره، المتواضع في علاقاته، الرائع في حسن إصغائه، الكلمة منه تغني عن الجوائز والميداليات..

يقولون إن القوة تكمن في ثلاث : المنصب السياسي، ثم العلم والمعرفة الأكاديمية، ثم القدرة المالية. ومن وجهة نظري، فإنني أعتقد أن العلم والمعرفة الأكاديمية، والمراكز العلمية في الجامعات والمعاهد العليا يجب أن تكون لها اليد العليا في كثير من أمور البلاد والعباد، وبعدها يكون دور السياسي، ثم صاحب الثروة والمال.. ومن تجربتي في هذه الحياة، فقد كانت لقاءاتي حول تربية الطفل مع الدكتور «عمر الشيخ» رحمه الله في كلية الآداب الإنسانية ومع الدكتور «أمين الكخن» أطال الله في عمره، حول أدب الطفل وثقافته في ذات الكلية، في الجامعة الأردنية، أو مع الدكتور «نبيل حداد» في جامعة اليرموك، أو مع الأساتذة المشرفين على رسالة الماجستير للطالب موفق ملكاوي بعنوان القصة في أدب الأطفال :روضة الهدهد نموذجاً،

أقول : هذه اللقاءات والدراسات التي يقوم بها المتخصصون الأكاديميون في مجال ثقافة الطفل، تثري بالتأكيد أدب الأطفال، وتدفع بالكاتب لمزيد من العطاء والإبداع.

رحم الله الدكتور «إحسان عباس»، وشكري موصول لكل الأكاديميين والكتاب والشعراء، الذين أضافوا للكتب التي أصدرتها، مقدمات أثرت هذه الكتب ومنهم : الدكتور عبد الرحمن ياغي، عصام حماد، والكاتبة الجزائرية عائشة لمسين والمناضل بهجت أبو غربية، الكاتب عبد التواب يوسف، السيد علي العسيلي، الصيدلي والعروبي أمين شقير، الشاعر عبد الرحيم عمر، الفريق الركن مشهور حديثة الجازي، والشاعرة فدوى طوقان، والدكتور صبحي غوشة.

في العمل التطوعي

أكاد أدّعي أنني مارستُ العمل التطوعي منذ بداية وعيي وإدراكي، أي منذ الطفولة في مدرسة الزهراء الابتدائية.. كيف؟ وهل يمكن ذلك؟

لا أذكر أن معلمة من معلماتنا طلبت ارسال دفاتر لغرفة المعلمات، إلا وكنت أول من يركض إليها لحمل الدفاتر، وإذا طلبت ورقة من الإدارة كنت كذلك أول المتطوعات لإحضارها..

مسح اللوح الأسود من الطباشير البيضاء، كان غاية ما أتمنى من تكليف.. الوقوف عريفة على الصف كان أمتع لحظات الإدارة والقيادة، الاشتراك في التمثيليات والمسرحيات وإلقاء الشعر والخطابة، وكتابة التقارير أو الأبحاث.. أو الاشتراك بالمسابقات الرياضية والكشفية، كان ما أسعى إليه دوماً..

في منزل أهلي، كان علينا نحن البنات أعباء منزلية نلتزم بها لمساعدة والدتي، تنظيف الأرض، شطف الدرج، مسح زجاج النوافذ،عصر الجزر والفواكه، المساعدة في إعداد الطعام.. نقوم بها إن برضانا أحياناً، أو رغماً عنا إن كانت الظروف غير ملائمة..

صحيح أنه كان هناك من يساعد الوالدة بالأجرة، خصوصاً في الغسيل والطبيخ والجلي، لكن هذا لم يكن يكفي لعائلة عدد أفرادها حوالي اثني عشر فرداً، لهم متطلبات لا تنتهي..

أذكر أن يوم الغسيل . ولم تكن الغسالات الكهربائية قد وصلت إلى الأردن بعد . كان يوماً مهماً عند العائلة، كانت «أم خالد «تحضر من الصباح الباكر، وتكون الوالدة قد «ولّعت» أي أشعلت بابور الكاز لتسخين الماء، بل أكثر من بابور، وأكثر من وعاء ماء.. كانت الأوعية المصنوعة من الصاج المقوى كبيرة وعميقة، بحيث يتاح «للغسالة أم خالد «أن تضع الملابس البيضاء الكبيرة للغلي فيها مع «الصودا والبوتاش». ألفاظ لم نعد نستعملها الآن في غسيلنا، واستبدلت بالبرسيل والايريال وبدون غلي، وتجلس هذه «الغسالة «نصف النهار أو يزيد، في فناء البيت تغسل وتغسل وتغلي وتشطف، وتنشر وتقلب النشر على الحبال، ثم إذا كان الطقس مساعداً ومشمساً، فإنها تلمّ الغسيل وتطويه..

مهمات لو أراجعها الآن في فكري، لتعبت منها، فكيف بأمي وهذه السيدة تقومان بها مرّة على الأقل كل أسبوع؟

كل أسبوع تضع الوالدة «اللّحف» على الأرض - بعد تنظيفها جيداً- وتبدأ بخياطة أوجه الملحفة واحدة تلو الأخرى، وإذا انتهى الغسيل و «قطب «أي خياطة الملاحف وتثبيت الأزرار وتصليح ما تمزق، يكون عليها تجهيز الأكل من الألف إلى الياء..

فهل أمام هذا لا يكون على البنات مساعدة والدتهم؟..

وهل لا أكون أنا أيضاً ضمن الفريق المساعد؟ وقد يكون ذلك إلزامياً، لكنني أعتبره بداية التعلم للعمل التطوعي..

في المدرسة في الجامعة، مع اتحاد الطلبة، في اتحاد المرأة الفلسطينية، في إقامة المعارض والاحتفالات وحتى الرحلات، كانت لي دائماً أدواراً إيجابية.. حتى عندما أسسنا في المدرسة ناديَ للعلوم أو اللغة الانجليزية أو برامج محو الأمية، فذلك كان عملاً تطوعياً..

وقد تطورت إسهاماتي مع التقدم في السن، فشاركتُ في عدد من الجمعيات الخيرية في عمان، كان من أبرزها جمعية الأسرّة البيضاء ثم جمعية أصدقاء الأطفال، وجمعية يافا للتنمية الاجتماعية ولجان العمل في يوم القدس ومنتدى بيت المقدس.. ثم على مستوى أقل مساهمة وفعالية في جمعيات ونشاطات عربية كالمجلس العربي للطفولة والتنمية، والرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال.. وعدد كبير آخر بإسهامات نوعية وكميّة تختلف من جمعية لأخرى. كل ذلك أوصلني للترشح والنجاح في انتخابات اتحاد الجمعيات الخيرية في الأردن، وكذلك في رابطة الكتاب الأردنيين، ثم عضو ممثل عن الرابطة في اجتماعات مجلس النقباء في مجمّع النقابات المهنية مع النقابات الأخرى ومنها نقابات المهندسين والأطباء والمحامين والمحاسبين والممرضين والصحفيين.

لقد عملتُ على مدى أعوام عديدة مع جمعية الأسرّة البيضاء منذ تأسيسها مع السيده الفاضلة «هيفاء البشير» (أم مازن)، التي أسست هذا العمل كونها زوجة الطبيب «محمد البشير» رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، فقد توفي «شهيداً» مع طائرة جلالة المغفور لها بإذن الله الملكة «علياء طوقان» زوجة جلالة الملك الحسين رحمه الله..

كنا نعمل في مستشفى الجامعة الأردنية، ومستشفى البشير الحكومي، في أيام معينة في الأسبوع ثابتة، لا نتخلّف عنها أبداً، مع سيدات أذكر منهن : أم طالب الرفاعي، وأم أحمد البطاينة، وهند الجيوسي، وماري نفاع الشوارب، وأم علي البشير وأخريات لا زلن يعملن بإخلاص حتى اليوم، بل لقد توسع العمل ليضاف إليه دار للمسنيين والمسنات، ومنتدى الرواد الكبار.

وعندما تخصصتُ بالطفولة وكتبها ومؤتمراتها، ترأستُ جمعية أصدقاء الأطفال التي كانت قد تأسست منذ عام ١٩٦٥، على يد مجموعة من السيدات والسادة أذكر منهم المرحومة حنان طوقان شقيقة الشاعرة فدوى طوقان والسيدة سعاد الحسيني والسيدة فايزة الحمامي سكجها وأختي انتصار الفرخ والسيدة وصال سكجها، وسميره التلاوي وكوكب الهدهد وثريا يعيش. ومن السادة الدكتور عبدالله الخطيب والأستاذ المحامي باسل البسطامي وغيرهم، لم أكن منهم.

إن العمل الاجتماعي في الأردن يُعتبر القطاع الثالث الأهم إلى جانب القطاعات الأخرى: الحكومية والخاصة.. وإحصائيات وزارة التنمية الاجتماعية تؤكد ذلك، وكذلك دراسات وإحصائيات الاتحاد العام للجمعيات الخيرية الذي يضم اتحادات من كافة المحافظات تخدم في مجالات الصحة والتعليم وكبار السن والأطفال والأيتام.. وغير ذلك كثير..

إن جمعية أصدقاء الأطفال التي أرأسها منذ عام ١٩٨٨ وإلى اليوم لا تزال تعمل لخدمة أطفال الأردن من خلال مراكزها الثقافية السبعة المنتشرة في الأماكن الأقل حظاً، مركز مخيم حطين وهو أكبر المراكز

مساحة، قمنا ببنائه على مساحة أرض تزيد على ثلاثة آلاف متر مربع، ومركز ماركا تم استلامه من أمانة عمان، ومركز مخيم الحسين قامت ببنائه لنا دائرة الشؤون الفلسطينية بدعم من الاتحاد الأوروبي، ومركز الوحدات ومركز مخيم البقعة ومركز مدينة الرصيفة.. ثم أخيراً في مخيم غزة في جرش.

ومن تجارب العمل التطوعي المميزة التي قمنا بها، بالتعاون ما بين جمعية يافا للتنمية الإجتماعية وجمعية أصدقاء الأطفال، افتتاح مركز صحّي في مبنى مجمع حطين الثقافي في مخيم حطين التابع لجمعية أصدقاء الأطفال. وقد قام ابن يافا البار «عدلي مسعود الدرهلي» بتأثيث المركز كاملاً. وقامت جمعية يافا للتنمية الاجتماعية بتوظيف طبيب وممرضة للمركز لخدمة أبناء المنطقة.

ولا زلت أعتبر العمل الاجتماعي التطوعي فرضاً على كل قادر من أبناء المجتمع.

الحـــــب

الحُبْ هالحرفين مش أكتَر — بيطلعوا قد الدنيا وأكبر
عليهم تعمّر أساس الكـــون — أي نبي بالحب ما بشـــر
عم تسألي شو الحب يا أسمر

لا أعتقد أن هناك فتاة أو فتىً لم يجرب الحب سواء في عمر المراهقة أو بعد ذلك..

وإذا كنتُ سأعترف عن حب فترة المراهقة في حياتي فلن يكون أكثر من سرحان ونوم وتفكير في شاب أو أكثر كانوا يحضرون للبيت في زيارة عائلية أو لجلب بعض الأغراض..

لكن حبي الحقيقي كان لأمي وأبي وإخوتي ثم لزوجي وأولادي.. كنتُ في بعض الأحيان أحسّ أن الحب في قلبي لمن هم حولي كبير وكبير بحيث لو وزع على كل من أعرف من معارف وأصدقاء لكفّى وفاض !!

وأتساءل بيني وبين نفسي.. ممن تعلمتُ هذا الحب؟ وكيف لم أشْكُ في حياتي من كره أو ضغينة لأحد حقاً؟ صحيح أنني وبحكم عملي وتجاربي في الحياة قد خضتُ أكثر من تجربة في رفع قضية هنا أو هناك ضدّي أو

ضدّ المؤسسات التي أرأسها بصفتي ممثلة لها، إلا أنني – وصدقاً – لم أحمل كرهاً أو حقداً أو ضغينةً لأحد..

صحيح أن هناك مشكلات عديدة تدور في بيتي وبيوت أبنائي، أو تقع بيني وبين إخوتي و أخواتي، ولكنها لم ترقَ يوماً إلى أكثر من كونها سحابة صيف تنقشع حالاً..

فممن تعلمتُ الحب؟

أجزم أنه من أمي أولاً وأخيراً..

أمي «هدى» التي عشتُ معها نيفاً وخمسين عاماً لم أسمع منها شتماً لأحد، أو حقداً على أحد.. تتحدث مع سيدات العائلة أو الأنسباء أو المعارف المثقفين والمتعلمين بكل رفعةٍ وأنفة، وتتحدث مع فقراء العائلة أو الأنسباء أو المعارف أو مع غير المثقفين والمتعلمين بنفس الأريحيّة.. وعلى ذلك علّمت أخواتي وعلمتني..

أحبِّي الناس واصْدُقيهم العاطفة وردّدي دوماً : اللهم لا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا..

أقتبس من مقدمة كتابي «لغز الأطفال والبندقية في مخيم الدهيشة» الإهداء المقدم لها مايلي:

«لأنها تحب الأرض والوطن..

أحبّت يافا وفلسطين وما فتئت تذكرهما في كل يوم وليلة..

لأنها تحب العلم والطموح..

لا ترضى بالقليل لها ولأولادها ولأمتها العربية..

لأنها تتحمل المسؤولية وتتقبل النقد.. وتبديه نقداً إيجابياً بناءً واضحاً يدفع للعمل المنتج المخلص..

لأنها تحب أبناءها بلا تفرقة أو تمييز.. تفكر بكل واحدٍ وكأنه وحيدها.. في صحته أو مرضه، قوته أو ضعفه، قربه أو غربته..

لأنها تحب الأهل، وتصل الرحم وتسأل عن الجار، تحب أصدقاء ومعارف وأهل أبنائها وكأنهم أصدقاؤها ومعارفها..

لأنها مثقفة واعية، واسعة الاطلاع تقرأ فتناقش ما تقرأ.. تسمع وترى فتحلل ما تسمع، تعطي رأيها وتستمع لآراء الآخرين..

لأن لها تفكيراً سياسياً واعياً موضوعياً وواضحاً.. تحب الوطن كحبها لأبنائها بلا مصالح ولا غايات..

لأنها أمي التي أحب.. أهدي لها هذا الكتاب».

سنوات الحزن

أختي فاطمة

هل كنتُ أغار من أختي فاطمة؟

كانت لا تجلس في مجلس عائلي أو مع الأصدقاء والمعارف أو حتى مع الغرباء إلا وتملؤه فرحاً وسعادة وضحكاً.. لم يكن احد لينافسها بخفّة الدم وسرعة البديهة، والتعليق اللماح..

ملابسها كأنها «مانيكان» أو عارضة أزياء خارجة للتو من تصوير لأغلفة المجلات أو المعارض، لا تلبس القطعة الواحدة من خزانتها مرتين.. تتفنن في مزج الألوان مع الاكسسوارات، هذا إيشارب صغير هنا، وذلك حزام جلد هناك، وتلك «جزمة» طويلة وأنيقة، أو عقد وحلق غريبان ولكن أنيقان.. كل ما فيها أنيق ومرتب، يساعدها في ذلك طول قامة وظهر مرفوع وجمال عينين ووجه.

لقد خلق الله أختي فاطمة فأبدع في خلقتها وخلقها..
هل كنت أغار منها؟

ومن لا يغار من الجمال وخفة الدم وأسر الحاضرين في أي مجلس تجلسه؟

أذكر أنني دخلتُ وإياها مكتب الأستاذ الدكتور «ناصر الدين الأسد» لأمر ثقافي، وبعد دقائق، وقد حدّثته، اهتم بها وبحديثها، وتركني أنسى ما جئت إليه من أجله !!

أذكر أن الكاتب المصري «عبد التواب يوسف»، وقد قابلها مرّة معي؛ أصبح يسألني عنها دوماً ويرسل لها السلام وكلمات الإطراء والإعجاب..

وفي الزيارات العائلية العديدة التي كانت تدعى فيها إلى بيتي مع الأهل أو المثقفين، كانت تصبح، وفي دقائق مركز الحديث وعصبه.

فكيف لا يغار منها المرء !!

عندما أصيبت بالسرطان في ثديها، واستأصل الأطباء الثدي، وذهبنا إلى منزلها ظانين أننا نعزيها بذلك، يرتسم الوجوم على وجوهنا جميعاً، قابلتنا بنفس الروح المرحة المعطاءة الدافئة والصادقة والحنون..

كل أصناف «التقديم» للضيوف جاهزة، ومن يديها الرائعتين.. العصير، القهوة، الكعك بالعجوة، المعجنات، فإكرام الضيف عندها أمر لا مفر منه حتى في المرض !

كل من سافر من الكويت إلى عمان بطريق البر أثناء محنة الكويت في غزو العراق لها عام ١٩٩٠، أخذ منها زوادة للطريق معجنات وصفيحة وساندويشات وفواكه..

في آخر يوم من حياتها،وهي ذاهبة للمستشفى في كندا عام ١٩٩٨ طلبت من ابنتها «منى» إحضار علبة البلاستيك من ظهر الخزانة في المطبخ، لتعطيها للممرضات الكنديات من عمل يديها.. كعك ومعمول.

أي قلب كبير كان لهذه الفتاة : أختي فاطمة؟! و أي حب كبير كنت أحمله لها؟ لقد سافرت إلى الكويت بعد تخرجها مباشرة، ولم تكن بعد قد أكملت الثامنة عشرة من عمرها، كي تعمل معلمة، ترسل معظم معاشها للوالدة لتصرفه علينا بعد وفاة والدي..

هناك عقدتْ الصداقات وأواصر المحبة مع كل من قابلتْهُ من أهل وأقارب وزملاء وزميلات..

من عرفها أو رآها مرة، أحبّها وحلف بحياتها وترحم عليها للأبد..

لو كنت في سبيل أن أتحدث عنها، لملأتُ الصفحات في وفائها لأمها وإخوتها، في صدقها وأمانتها، في تسامي روحها وخفة دمها ونقاء سريرتها، في حسن تعاملها مع الجميع، في كرمها وعطائها، في إخلاصها لعملها.. في.. في..

دُفنت في كندا، وتلقينا عزاءها في عمان والكويت وكندا وأبو ظبي وحتى أمريكا، حيث ابنها وعائلته..

أخي محمد
إيه يا محمد..

وآه... آه يا محمد..
له من ذكريات الطفولة الشيء الكثير..
ألم يكن الشريك الدائم في ألعاب الطفولة : متعها ومعاناتها؟

كم مرة لعبنا بالثلج في شتويات عمان الباردة؟ كم مرة تسلقنا سطح الدار وجمعنا بيض الدجاج، أو طيّرنا الحمام؟ كم مرة تعاركنا بالأيدي وذهبنا إلى أمنا نبكي نشكي بعضنا بعضاً؟ وهل وقفت أمنا يوماً معه ضدنا؟ لم أكن أسمع إلا أنه كان الولد الأول بعد ست بنات، وأن عقدة «الصبي» لم تحل إلا عندما وُلد.. وإنني لما كنت بعده، ظنت والدتي أنني سأفتح نصف الدزينة الأخرى من البنات.. ولكن الله سلّم فكان أخوان آخران: خليل ومحمود...

فهل كان محمد هو الأثير لدى العائلة فعلاً؟ ولماذا كان والدي يقسو عليه في تربيته وتعليمه إذن؟

لا أذكر أنه كان مدللاً أو مفضلاً عنا «البنات»، عليه ما علينا من حفظ لآيات القرآن الكريم وتسميعها يومياً قبل النوم، وعليه شراء الحلاوة والخبز من بقالة «أبو الراغب» القريبة منا.. وعليه حمل العجينة إلى الفرن، إذا تأخر «أجير الفران» في الحضور.

كم مرة صعدنا سوياً لنساعد والدي في إنزال أكوام الثلج عن سطح الدار، خشية أن ينهار السطح بفعل وزن الثلج؟

كم مرّة نزلنا إلى شارع الأمير محمد «طريق وادي السير كما كنا نسميه» نضرب الناس بكرات الثلج، أو نتحمل ضرباتهم؟

كم مرة حمّصنا الخبز على «صوبة الكاز» في منزلنا، وأكلنا الرغيف وراء الرغيف بالزيتون، والزيتون فقط لا غير؟

ألم يكن شريكي حتى في حفظ الشعر وإلقائه على الجمهور، إن بالمسابقة الشعرية عن مدرسته، أو أمام ضيوفنا بطلب من والدي؟.

وعندما كبر، ألم يكن أمل الوالدة بالتخرج «دكتور» يعوض وفاة والده؟..

كل الآمال كانت معلّقة على محمد ليسند العائلة، فالولد وفقط الولد هو من يحمل اسم العائلة..

ولكن محمد لم ينتظر طويلاً..

قصم ظهره موت ابنه البكر«فهيم» وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره، فظلّ يذهب يومياً إلى قبره يبكي عليه..

طوال سنوات ثلاث، ظلّ محمد يركب سيارته وحده، ويقطع مسافة كبيرة من عيادته في جبل الحسين في عمان، إلى مقبرة «سحاب» حيث ووري جثمان ابنه.. مسافة لا تقل عن أربعين كيلو متراً في الذهاب والإياب، ومحمد يذرف الدمع على ابنه..

وعندما أصيب بالسرطان، تعطلت أجهزة الاتصال بين أفراد العائلة، وصمت الجميع..

فوالدته «هدى» تجلس على سريره وتحت قدميه تدعو الله سراً وعلناً ومع العبرات والدموع والذكريات أن يحفظه الله لها..

وزوجته «سامية» وأولادها «شيرين «و»نورا» و»زيد» و»حمزة» الأولاد القصّر، الذين لم يبلغوا الحلم بعد، يروحون ويجيئون بلا صوت، يتطلّعون إلى جدّتهم وإلى عماتهم وأعمامهم وأخوالهم وخالاتهم..

وأنا وأخواتي ننظر إلى هذا الأخ الحبيب، ولا نستطيع له دعماً.

يقولون إنّ الولد لا يموت أمام ناظريّ أمّه، ومع أن والدتي ظلّت تحت أقدامه أياماً، إلا أنه وفي اللحظة الأخيرة من عمره، غاب عن ناظريها.. لم تخرج روحه أمامها !! انتظرت روحه حتى صعد سيارة الإسعاف إلى المستشفى، فغادرت جسده، وبقيت أمه تحمل الهمّ والألم وحدها .

كم هو صعب فقدان محمد !!

في استعادة أختي ازدهار لزيارتها الأولى لبيتنا في يافا تقول، إنها ظلّت رابطة الجأش لا تبكي ولا تنفعل، وتتجول في منطقة سكن أهلنا هناك، تحاول لملمة شتات فكرها وذكرياتها عن الشوارع والبيوت والمدرسة والمستشفى في المنطقة؛ وعندما دخلت بيت أهلنا حيث كنا نسكن قبل الهجرة وترك الديار، دخلت أيضاً رابطة الجأش، محاولة أن لا تضعف أمام اليهود ساكني الدار.. ولكنها عندما دخلت إلى غرفة النوم حيث ولد «محمد «وجلست هنيهة تتأمل بلاط الغرفة المزيّن بنقوش بديعة، اندفعت إلى ذاكرتها، ذكرى ولادته وفرحة العائلة بقدومه، فانفجرت كل خلايا جسدها دفعة واحدة تبكيه،

وتبكي حسرة أمه وأخواته وإخوانه بفقده، ولمّا يتم الخمسين من عمره بعد..

في ساعة الحزن كل الذكريات الحزينة تطلُّ برأسها دفعة واحدة.. تتذكر كل من فقدت، وتبكي كل أعزائك..

هكذا أهل عمان في عزاءاتهم، يأتون ليشاركوك حزنك، فتنفتح عليهم بوابات أحزانهم السابقة، فيجرّ الحزن حزناً، وتمتلئ القاعات بالبكاء والنشيج..

كان محمد رجلاً مفوّهاً، وطبيباً بارعاً، وإنساناً حساساً، له من الذكريات معي، ومع زوجي لاحقاً وأولادي، الشيء الكثير.

وأهم ما يخص كتاباتي، أنه كان يناقشني دوماً بها، وإن أنسَ لا أنسى أنه عندما حمل كتابي الثالث والصادر عام ١٩٨٣، قال: كنت أعتقد أنك لن تكملي مشوارك الكتابي، وأن حماسك نزوة عابرة ستزول، لكنني الآن أؤكد أنك على الدرب سائرة، وستقدمين لوطنك ما عجزنا عن تقديمه نحن..

أختي افتخار

بوفاة اختي «افتخار» أخذت حياتي منحىً لم أكن أفكر فيه من قبل، منحى العمل الفعلي في سلك التربية والتعليم من خلال رئاستي لهيئة مديري مدارس المنهل العالمية ومؤسسة المنهل التربوية.

اقترنت المنهل بأختي افتخار.. كانت أحد المؤسسين لها في الكويت عام ١٩٦٥، لكنها اقترنت باسمها وكأنها الوحيدة في المؤسسة..

في الكويت تداعى عدد من الأقارب التربويّين لتأسيس مدرسة للجالية الفلسطينية هناك، أختي «افتخار» وزوجها «عبد الرزاق بدران» وأخو زوجها الحاج المربي «سعدي بدران» وشقيقته العاملة أيضاً في سلك التربية والتعليم «عاتكة بدران» وأختي«رضا الفرخ «وزوجها «هشام عز الدين» وأختي «فاطمة» وزوجها المهندس «محمود القباني» وآخرين..

ولّما انتقلت «افتخار» لعمان عام ١٩٨٧ انتقلت معها فكرة «المنهل» ودعتنا نحن أقارب ومعارف، للمساهمة في إنشاء مدرسة أخرى تحمل اسم المنهل أيضاً في عمان مشروعاً تربوياً استثمارياً، وظلّ المشروع في عمان مقترناً باسمها.

ولما توفيت . رحمها الله . عام ١٩٩٩ ظنّ البعض أن المؤسسة ستنهار بوفاتها، وكان علينا نحن أخواتها والمساهمين في المؤسسة أن نتداعى لحماية هذه المؤسسة التربوية أولاً والتربوية ثانياً وثالثاً والاستثمارية عاشراً..

واستلمتُ رئاسة هيئة مديريها مدّة اثنتي عشرة سنة متواصلة، بذلتُ فيها الجد والإخلاص والإيمان الراسخ بأنني أقوم بعمل وطني لخدمة الوطن الذي أعيش فيه، وأبنائه الذين هم مستقبله وأمله.

كم كتاب عن التربية والتعليم قرأت!!
كم كتاب عن القيادة والإدارة درست!!
كم ندوة عن المناهج والتعليم والمشاكل والحلول تابعت!!

قد أخذت الأمر بجدية وصدق وحب.. وتعاونتُ مع معلّمي ومعلمات المدرسة ومديريها ومديراتها، بل وحتى سائقي حافلاتها وأذنتها... وتعاونت، بشكل إيجابي، مع مالكي المؤسسة، حيث أنها في النهاية «شركة تجارية» ومسجلة في وزارة الصناعة والتجارة، ومشروع استثماري يجب أن تغطي إيراداته كافة مصاريفه.

المهم أن التجربة كانت والحمد لله ناجحة تربوياً واستثمارياً..

وظلت روح أختي «افتخار» ترفرفُ فوق أسوار المنهل وفي قلبي..

أختي رضا

كانت أخواتي الأكبر سناً يتابعن دراستي وأنا صغيرة، ثم يخطن لي ملابسي عندما كبرت.. أذكر أن أختي كاملة خاطت لي ملابس الجامعة بما فيها من فساتين وأطقم ومعطف سميك لاتقاء البرد، كي أكون «مرتبةً في الجامعة»، بل إن أخواتي في الكويت ازدهار ورضا وفاطمة أشرفن على إعداد «جهازي» عندما خطبت وتزوجت..

أما أختي رضا، فلي معها ذكريات لا تنسى.. كانت قد حضرت لعمان قبل غزو العراق للكويت.. وزوجها من العائلات السعودية التي حضرت إلى الأردن مع جلالة المغفور له الملك عبدالله الأول بن الحسين. والد زوجها الدكتور «يوسف عزالدين حسنين» من أوائل الأطباء في عمان، درس الطب في الأستانة في تركيا، وورث العلم أباً عن جد، حيث كان أبوه صيدلانياً تخرج من تركيا أيضاً، وأمه من العائلات اللبنانية، تجلس معها فتحسّ بالرقي والحضارة.. وزوجها «هشام عزالدين» مهندس شاب من خريجي لندن مُجدّ ومخلص في عمله مثقف.. فلما عادت أختي رضا وزوجها وأولادها لعمان، وكنتُ قد تزوجتُ، نشأت صداقة خاصة بيني وبينها، كونها كانت متفرغة لا تعمل بوظيفة ثابتة، ولكن تفكر دائماً بمشاريع طموحة، إن ثقافية أو اقتصادية أو تعليمية. دائماً تدفع من حولها للتفوق على ذواتهم والإبداع بأعمالهم..

كنتُ اتصل بها يومياً. ولما كانت تقرأ الجرائد وتتابع ما يجري في البلد من بواكير الصباح، فقد كانت لديها كل يوم أخبار جديدة واقتراحات لمواضيع جديدة : «هناك إعلان عن مسابقة في وزارة الثقافة لمسرح الطفل قدّمي لها.. هناك معرض كتاب اشتركي فيه، هناك ندوة في مصر اتصلي بالقائمين عليها واحضريها.. سيفتتحُ الأمير الوليد بن طلال المجلس العربي للطفولة والتنمية انضمي إلى المجلس .. دعينا نفتح معهداً ثقافياً للطلبة لما بعد مرحلة التوجيهي.. وما دمت ستسافرين إلى انجلترا فاتصلي بالمعهد الفلاني علّنا نستفيد من تجربته».

يالله.. عقل متفتح يعمل ليل نهار، يعمل ويدفع كل من حوله للعمل.. ولّما كانت قد مارست المحاسبة منذ أن كانت في الكويت وفي مدرسة المنهل هناك، فقد استلمت بشكل تطوعي الأعمال المحاسبية لجمعية أصدقاء الأطفال، فكانت تحاسب الموظفات فيها شهرياً، بدقة واقتدار.. ولما أسست مشروع النادي الصيفي في مدرسة المنهل العالمية وأسمته «هوازن»، كان من أوائل . إن لم يكن أول . نادي صيفي على غرار النوادي الصيفية في البلدان الأوروبية، كسويسرا وأمريكا وانجلترا. لقد ذهب أولادها إلى بعض هذه النوادي هناك، فأحست أن عليها أن تنقل التجربة إلى الأردن، وجنّدت جميع أبناء العائلة للاشتراك أو العمل التطوعي في هذا النادي.. وكان أبنائي من أوائل المشتركين، فمن تمثيل إلى ركوب خيل إلى رحلات سياحية للتعرف على الوطن، إلى التخييم في مزارع قريبة من العاصمة، إلى السباحة.. الخ، نشاطات رائعة على مدى أشهر الصيف.

لم يكن عقلها يمل أو يستريح.. تقرأ مخطوطات كتبي للأطفال وتعلق وتعلق وتعلق.. تشاهد التدريبات المسرحية فتعلق وتعلق. تناقش

الأوضاع العائلية فتعلق وتعلق.. ليسَ بالكلام فقط بل بالعمل والمتابعة الحثيثة لكل صغيرة وكبيرة.

عندما عدتُ في ذلك العام من رحلة سياحية خاصة مع زوجي، كنتُ أحمل في صدري الحماس كله، لأبدأ نشاطاً غير اعتيادي مع أختي «رضا».. كانت موجات الحزن والموت قد اكتسحت منزلنا بوفاة أعز الناس علينا. غادرتنا وبالتوالي وخلال خمس سنوات فقط، أختي فاطمة، ثم ابن أخي فهيم، ثم أخي محمد، ثم أختي افتخار، ثم أمي هدى.. وظننتُ أن القدر سيمهلنا سنوات قبل أن يضرب ضربة أخرى، فوضعت الخطط للانطلاق مع أختي رضا تحديداً.. ولمّا وصلتُ أرض المطار في عمان، قيلَ لي إنها قد أنهت اليوم فحصاً طبياً، أثبت إصابتها بالسرطان !!

لم أستطع التحمّل، ظللتُ طول الطريق أبكي، أتأمل وجهها وعينيها الجميلتين جداً، الزرقاوتين جداً كماء البحر في البحار العالية.. أذكرُ شعرها القصير والذي كان في ذاكرتي أجمل شعر، تقصّه (بايج بوي) لا هو بالطويل ولا القصير مع غرّة على الجبين كأجمل فتاة في عمان.. أتأمل مستقبل مرضها هذا الذي يُرعب الناس اسمه.. ثالث ضحية لهذا المرض في عائلتنا في أقل من خمس سنوات. كنتُ في سفري أعد العدة لعودتي كي أنطلق وإياها: إن في العمل المشترك أو شمّة الهوا المشتركة.. سنزور فلانة وفلانة.. سنتابع كذا وكذا.. وسنعملُ كذا وكذا.. يجب أن أخلع عباءة الحزن التي خيّمت على عائلتنا، ولا بدّ أن القدر سيجود علينا بفترة هدنة، أنطلق فيها مع رضا هنا وهناك..

ولكنني فوجئت وأنا لا زلت في المطار بالخبر المشؤوم.

أقول.. انطلقت إلى بيتها أسألها، بل أسأل نفسي، بل أتضرع إلى الله أن يلهمني فهم حكمته في تلك الضربة القاسية..

ولكن القدر لا مردّ له..

في الجهود المسرحية

أحياناً أرى تجربتي في الحياة تتفرع لجهات عديدة كشجرة الزيتون وفروعها وأغصانها، فأنا أم عليَّ أن أرعى أبنائي: منذ ولادتهم وحتى دراستهم الأولى الأساسية، ثم الجامعية، ثم زواجهم، وبعدها يأتي أحفادهم ليأخذوا قسطاً كبيراً من حبي وفرحي وسعادتي واهتماماتي..

ثم إنني زوجة وعليَّ مسؤوليات اجتماعية واسعة تجاه الأصدقاء والمعارف والأهل.. وقد نشأتُ على مقولة الأم الأعرابية توصي ابنتها في يوم زفافها «أن تكون لزوجها أمَةً حتى يكون لها عبداً»، وأحسُّ أن والدتي رحمها الله قد أفردت للشق الأول من الوصيّة الجانب الأهم والأوسع تطبيقاً.. ومهما أخذتُ من حرية في عملي إلا أن هاجساً يظّل يطل برأسه إذا ما تأخرت عن المنزل، أو عاد زوجي إلى المنزل قبلي.. فمهما كان من أعمال ينبغي إنجازها خارج المنزل، يجب أن أعود قبله، وأن أستقبله بابتسامة متناسية متاعبي..

وزوجي. أبقاه الله وحماه. كان قد نال قسطاً وافراً من تعليقات الأهل والمعارف بسبب عدم إتمام دراستي الجامعية الأولى.. فلمّا أتممت دراستي الجامعية الأخرى، لم يكن يقبل فكرة العمل بها.. محامية.. محامية لمن؟ للقتلة والمجرمين أم للمطلقين أم للفاسدين؟ المهم عنده أن مهنة

المحاماة لن تناسبني، وما يناسب المرأة. حسب اعتقاده. القراءة والثقافة والاطلاع على حضارات الشعوب..

وفعلاً مشيتُ في هذا الطريق.. فلما أوغلتُ به نتج عنه اهتمامات ومسؤوليات جديدة، فاذا بي أهتم بالمسرح، وأتمنى أن أنقل تجارب المسرح العالمي الغني بالديكورات والمؤثرات والاكسسوارات والموسيقى والتمثيل والأداء، لأطفال الوطن العربي..

كنتُ إذا حضرتُ مسرحية في أحد مسارح لندن، أو إذا أتيح لي رؤية مسرحية على أحد مسارح شارع برودوي في نيويورك، كنتُ اتمنى أن ينال الطفل الأردني حظه من مثل هذه الأجواء الساحرة..

وقد ساهمتُ بإعداد وتأليف والإشراف على عدد من المسرحيات للأطفال تجاوزت خمسة عشر عملاً مسرحياً، قدّمها الأطفال أنفسهم، سواءً من أطفال الجمعيات الخيرية التي أعمل بها، أو من طلاب مدارس كمدرسة المنهل أو مدارس خاصة أو حكومية أو وكالة الغوث.

كنتُ ولا زلتُ أتمنى أن تتاح الفرصة لكل الأطفال، المشاركة في المسرحيات أو مشاهدتها، مهما كانت المسرحيات بسيطة أو مركبّة أو ثرية بديكوراتها وأغانيها وملابسها..

لقد نالت بعض هذه المسرحيات نجاحاً باهراً واستحساناً كبيراً، وسُجِّلت وعُرضت على التلفزيون الأردني، وحضرها آلاف الأطفال من مدارس مختلفة، وقُدِّمت على مسارح هامة، مثل مسرح المركز الثقافي الملكي ومسرح مركز الحسين الثقافي، ومسرح أسامة المشيني، وعُرِضَ

بعضها، إضافة إلى عمان العاصمة، على مسارح مدينة الزرقاء وإربد والمفرق.

والحديث عن مسرح الطفل وأهميته يطول ويطول..

المهم أنني قمتُ بنشر هذه المسرحيات في كتب، قلتُ في مقدمتها :

«وهاهي المسرحيات متاحة بين يدي المدارس والمربين والمهتمين بثقافة الطفل، كي يختاروا منها ما يناسبهم، ليقوم الطلبة والطالبات بأدائها على مسارحهم، وأنديتهم ومراكزهم الثقافية، وأمام زملائهم وأقرانهم، كون المسرحيات جُرّبت عملياً على خشبة المسارح المدرسية والمسارح المتخصصة؛ وكون النص مدققاً لغوياً، والديكورات سهلة التطبيق؛ وكذلك لسهولة الأداء الموسيقي والأزياء والاكسسوارات.
وحيث . وهو الأهم . أن حقوق الطبع والاستفادة متاحة للجميع.

أعود إلى ما بدأت به فأقول، إن هذا التنوع في التجارب الثقافية والاجتماعية يردف بعضه بعضاً.. فالكتاب والمسرح وافتتاح المراكز الثقافية ومتابعة الحملة الوطنية لتشجيع القراءة.. والقراءات القصصية، واللقاءات العديدة مع الأطفال في مدارسهم ونواديهم والندوات والمؤتمرات التخصصية.. كل هذه وعشرات غيرها يتفرع من جذع واحد، جذع زيتونةٍ فلسطينية عربية عصيّة على الاقتلاع.

جائزة الدولة التقديرية في أدب الطفل

بعد موجة التقدير من الإخوة المصريين على نيل جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عام ١٩٨٣، انتظرتُ طويلاً حتى نلتُ جائزة السلاح الجوي الملكي الأردني عن كتابي «أسد فوق حيفا» عن الطيار الحربي الشهيد «فراس العجلوني» الذي صدر عام ١٩٨٦..

وبينما كنتُ في رحلة إلى القاهرة، إذ بالهاتف يرن في تلك الليلة، ليصل إلى مسمعي صوت أختي تهنئني فيها بنيل «جائزة الدولة التقديرية في أدب الطفل».. كان ذلك عام ١٩٩٩ ولم أكن أتوقع ذلك أبداً، فأنا لم أكن قد قدّمت أي عمل لنيل الجائزة أو الدخول في المسابقة.. والحق أقول إن فرحي بذلك كان فرحاً كبيراً لا يقدّر.. وإلى اليوم أعتقد أنها أرفع جائزة يمكن أن يتمناها الكاتب الأردني في بلده : الأردن فكان تسلّم الجائزة من يد جلالة الملك عبدالله الثاني، وفي احتفال تعده وزراة الثقافة، إنجازاً أحمد الله عليه..

صحيح أن الكتابة في وطننا العربي، ومرادفها القراءة لا تحظيان باهتمام كبير، وأن إحصائيات ما يكتب وينشر للأطفال في وطننا العربي هزيل بشكل مخزٍ خصوصاً إذا ما قورن بإنتاج الدول المتقدمة لأطفالهم، وصحيح أنه لا يوجد مردود مادي للكاتب في مجال أدب الأطفال في الأردن، إلا أن تقدير المجتمع لما أقدّمه للأطفال، كان ولا زال يعطيني مردوداً

روحياً وعاطفياً ومعنوياً الشيء الكثير.. إن دعوتي للقاء الأطفال في المدارس، واستمتاعي بمناقشتهم بما يقرأون لي، ورؤية التغذية الراجعة في عيونهم، واستمتاعهم بمشاهدة المسرحيات، يجعلني أشكرُ الله أن قيّض لي الإمكانيات الفكرية والمادية لتقديم هذه الكتابات للأطفال، بل وأرجوه سبحانه وتعالى أن يتقبّل عملي لوجهه الكريم..

سمعت الحديث ذاته عشرات المرات، من عشرات المعلمات، ومن عشرات المدارس في الأردن، وتحديداً مدارس وكالة الغوث.

تقول المعلمة : «في طفولتي، ولّما كنت على مقاعد الدراسة في المدرسة، حضرت لصفنا وناقشناك كطالبات حول هذه القصّة، أو تلك من قصصك المتوفرة في مكتبة المدرسة»؛

«وقد اشتريتُ أحد كتبك من مصروفي الخاص، حيث كانت معلمتنا آنذاك تأخذ منا ثمنه على دفعات لضيق ذات يدنا، فكان ذلك الكتاب أثمن ما أملك.. يومها وضعته تحت مخدتي كأنه «حجاب» أحرص عليه الحرص كله.. فهو لي أنا وحدي، أخرجه من مخبئه بعد انتهاء دراستي، أطالع صوره بإمعان أو أعاود قراءته. وأراجع في فكري وخيالي لقاءنا معك في المدرسة، فما أسعدنا وقد قابلنا «الكاتب» وجهاً لوجه؟...»

وتكمل المعلمة حديثها قائلة : «وأكملت دراستي الثانوية والجامعية وعدت، ولكن كمعلمة للمدرسة، وأحببت أن أعيدَ التجربة مع تلميذاتي، فاتصلتُ بك على استحياء، لعلّك مشغولة جداً، أو لعلك لا ترحبين بالاستجابة لدعوتنا لك بالحضور لمدرستنا والالتقاء بالطالبات، فلمّا أجبتنا وبسهولة بالقبول، غمرتني السعادة من أجلي أنا بالذات ومن أجل الطالبات»

وأقول كم يسعدني هذا الحديث، رغم تكراره، فتكراره يدل على صدق قائليه، وأنا كنت ولا زلت، والحمد لله، لا أرفض لقاءً أو ندوةً أو حواراً مع الطلاب والطالبات..

أليست كتبي موجهة لهم؟ ومن أين سأستقي التغذية الراجعة إلا منهم؟ وهل تكتمل الرسالة التي آمنت بها إلا إذا وصلت للمتلقي، وأحسست بها؟

أعود وأكرر أن المعلم لو يدري حقيقة أهمية دوره في حياة الطلبة، لبذل الجهد فوق الجهد لإكمال هذه الرسالة، والقيام بالعديد من الأنشطة المكمّلة للمنهاج وللعملية التعليمية التعلمية، أنشطة تربوية، أدبية، رياضية، كشفية، مسرحية وخطابية.. وما أوسع هذا المجال !!!

اليوم في منزلي خزانة كاملة من الأرض وحتى السقف، مليئة بالدروع وشهادات التقدير لما قمتُ به في مجال أدب الأطفال وثقافته.. وفي مجال العمل التطوعي العام..

فشكراً لله... وله الحمد والمنّة..

جائزة خليل السكاكيني لأدب الطفل وثقافته..

يتميز الزميل «عبد الله رضوان» أنه رجل نقابي من الدرجة الأولى، إيجابي الطبع، سريع التنفيذ، لا تلهيه الشعارات والمهاترات والأحاديث الجانبية، وقد عملنا سويّاً في أكثر من دورة انتخابية في الهيئة الإدارية لرابطة الكتاب الأردنيين.

ولمّا كان يعلم وضعي الاجتماعي والاقتصادي، فقد اقترح علي إعلان جائزة باسم «روضة الهدهد» لأدب الطفل، وذلك ضمن الجوائز التي تقدمها الرابطة في مجالات عديدة من مثل : الشعر، النقد الشعري، القصة، الرواية، الحريات.. الخ... وقد وافقتُ في حينها على تبني الجانب المعنوي والمادي لهذه الجائزة، ولكنني اقترحتُ تسميتها بجائزة «خليل السكاكيني لأدب الطفل وثقافته» حيث أن الراحل «خليل السكاكيني» كان له الفضل الأكبر في موضوع أدب الأطفال وثقافتهم وتعليمهم، والجميع يعرف دوره في وضع مناهج التعليم للمراحل الأساسية وما يعرف بالطريقة التركيبية من الحرف إلى المقطع إلى الكلمة. من حرف ر إلى را إلى راس، أو رَ رو . روس

وبالفعل قمنا في الرابطة، بوضع أسس وشروط هذه الجائزة، وفعّلناها لمدة عدة سنوات، ونالها العديد من الإخوة العاملين في مجال أدب الطفل مثل

الشاعر «علي البتيري» السيد «محمد الظاهر»، وكان لي الشرف أنني نلتها أيضاً، وبالطبع تبرعت بقيمة الجائزة المادية للرابطة نفسها..

ولا زالت الجائزة ضمن الجوائز التي تقدّمها الرابطة للمبدعين في أدب الطفل وثقافته من أبناء هذه الأمة، إن من الأردن أو خارجه.

في الجانب الاقتصادي

لم يكن في قاموسنا في تلك الأيام وقبل خطبتي إلى زوجي، أي عام ١٩٦٦، كلمة (تمكين المرأة) فهو مصطلح حديث الاستعمال، وصل إلى قاموسنا اللغوي مع مصطلحات أخرى مثل (التمييز ضد المرأة)، (العنف ضد المرأة)، (عقد المرأة)، (حقوق المرأة).. الخ

وكنتُ أعتقدُ دوماً أن الحرية الاقتصادية جزء أساسي من حرية المرأة.. وأن على النساء أن يتعلّمن حتى ينلن شهادةً : قل سلاحاً تتمكنّ معه من الشعور بالمَنَعَة والعزّة والصمود أمام غوائل الدهر.. وغوائل الرجال.. ومع أن زوجي والحمدُ لله لم يضطرني لذلك، إلا أنني لا زلت أعتقد أن التمكين الاقتصادي والمقدرة على نيل شهادة علمية أو مهنة لها مردود اقتصادي، كالخياطة أو التطريز أو التمريض أو.. أو.. ضروري للفتيات، مهما كان وضع زوجها المادي..

أسوق كل تلك المقدمة لأقول إنني عملتُ في جزء غير يسير من حياتي العملية، كي يكون لي دخل اقتصادي، أنظرُ إليه الآن وقد تمثل في عقار ومحلات تجارية على أرض ورثتها من أبي رحمه الله، لقد كان والدي يعمل في دائرة الأراضي والمساحة، وكان يؤمن بأن «العقار»: أرض أو بناء هو وسيلة مهمة للأمان والمستقبل.. وقد أمّن أولاده وزوجته ببيت «ملك» وأمّن مستقبلهم بقطعة أرض كانت بعيدة جداً عن سكناه، ولكنها

مع الأيام أصبحت مهمّة، وفي منطقة حيوية.. ولما استطعتُ تعميرها، ولما كنتُ دوماً مؤمنة بموضوع الوقف: الذري والخيري، فإنني أوصي نفسي وأولادي أن أجعله «وقفاً خيرياً»، بحيث يصرف نصف ريعه لأبنائي، ونصفه الآخر لأعمال الخير التي أقومُ بها في حياتي : إن تبرع للجمعيات الخيرية أو تبرعات لصمود أهل فلسطين في القدس ويافا وغزة أو للفقراء وطلاب العلم..

لقد تولى والدي فهيم . رحمه الله . مسؤولية إدارة وقف آل الفرخ في مدينة يافا قبل عام ١٩٤٨، فلما سقطت يافا بيد الاحتلال الصهيوني، ولما هُجّر أهل يافا وفلسطين عن أراضيهم، ظلت الذكرى عن الوقف مع آلاف الذكريات الأخرى في الوطن السليب تلح على خاطري دوماً..

في إيران...

جاءني اتصال هاتفي من السفارة الإيرانية في عمان يوماً، يطلب مني الاشتراك بمعرض للكتاب في العاصمة «طهران»، حيث سيكون هناك جناح خاص «لأدب المقاومة» وكتب الأطفال الخاصة بذلك.

وأبديتُ استعدادي للسفر، شريطة أن يكون معي مرافق، حيث أنني بتربيتي المحافظة لا أحبذ السفر بمفردي. وكان لي ذلك، فاستعدّت أخت زوجي «كوكب الهدهد» لمرافقتي.

ولما كان شرطهم الوحيد لبس الحجاب والملاية، وكنت أناغير محجبة آنذاك، فقد اشتريتُ عباءة مطرّزة بالتطريز الفلاحي من محل شقيقتي «انتصار»، وكانت مثار إعجاب كبير من الإيرانيين لجمال تطريزها التراثي الفلسطيني ووضعتُ الشال الأسود على رأسي وسافرنا.

في طهران، كان الإعداد لمعرض الكتاب كبيراً ومنظماً.. شاهدتُ عدداً كبيراً من الكتب العربية مترجمة للغة الفارسية دون أن يدري مؤلفوها أو دور النشر أنها مترجمة.. قصص لغسان كنفاني، قصة لجمال أبو حمدان أصدرها مركز هيا الثقافي في عمان، دواوين شعر لمحمود درويش، وسميح القاسم.. قصص من سوريا..

وكان جناح «أدب المقاومة «يجمع هذه الكتب وغيرها، بل إن الكتّاب الفلسطينيين من سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، أثروا المؤتمر بلقاءاتهم وإلقاء أشعارهم، وعرض إنتاجهم الأدبي والفني عن المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني.

وكان الوفد الفلسطيني القادم من سورية من أكبر الوفود العربية عدداً، منهم الشعراء والقاصون والفنانون والمفكرون والسياسيون، ومن هذا الوفد تعرفتُ إلى «زهدي العدوي» أصغر وأول سجين فلسطيني أمضى في سجون العدو عشرين عاماً أو يزيد، فخرج منها رجلاً، ولكن فناناً. فكان مادة قصة «السجين الفنان»، التي صدرت عام ١٩٩٦.

ومن فلسطين قابلتُ «سميح القاسم»، وكانت أول مرة أقابل فيها شاعراً من «الداخل»، ولم يكن قد انفتح بعد على البلاد العربية، وعلى الأردن تحديداً.

من الأردن كان معنا المفكر الإسلامي المرحوم «حسن التل»، مؤسس ومالك وكاتب في جريدة الدستور الأردنية، والفنان «عبد الحي مسلم» الذي ذاع صيته في الأردن لاحقاً كفنان ملتزم يشكل من قصاصات الجرائد ونشارة الخشب مجسماتٍ وأشكالاً فنية رائعة، أقام لها العديد من المعارض في الأردن والخارج.

وقد دعانا ورحب بنا رئيس الجمهورية «هاشمي رفسنجاني» ووزير الثقافة والعديد من الجهات الرسمية وغير الرسمية.

ولّما تأخر موعد الطيران للعودة لأسباب فنيّة، فقد نظموا لنا رحلة بالحافلة إلى مدينة أصفهان العريقة والمليئة بالفن والجمال، وأحسسنا

بارتياح كبير، عكس طهران القابضة للنفس، ولّما استفسرنا من الدليل السياحي عن ذلك الإحساس، أكّده بقصّة دينية تراثية، تقول إنه عندما أراد «النمرود» ملك فارس حرق سيدنا إبراهيم عليه السلام، طلب من كل المدن التابعة للمملكة أن تحضر خشباً لحرقه، إلا أن أهل أصفهان لم يلبّوا الدعوة. ولم يساهموا في عملية إحراق سيدنا ابراهيم. فدعى لهم النبي بالحبور والسرور والخير والبركات... وهذا ما كان إلى يومنا هذا!!

أعود إلى رحلة إيران، فقد كان فيها متاعب جمة، أهمها تأخر عودتنا إلى عمّان مدة أسبوعين، مع أن الرحلة كانت مدتها أربعة أيام فقط... أحسسنا فيها أننا في منفى، وحمدتُ الله على وجود أخت زوجي مرافقة لي، ووجود المرحوم «حسن التل» في الوفد الذي هدّأ من مخاوفنا.. وعوّضنا الله عن ذلك فأحضرنا السجّاد العجمي والهدايا وشاهدنا قصور الشاه ومجوهرات «فرح ديبا» والقصور التراثية الجميلة في طهران وأصفهان.

رحلة الحج

يهبُّ صاحب البقالة ليقول لي (أهلاً بالحجة.. تفضلي).. ويقف بائع الأحذية ليقول للصبي : (شوف الحجة ماذا تريد).. وإذا ركبتُ سيارة تاكسي يقول السائق : «على وين ياستي الحجة «!!

ومنذ وضعتُ الحجاب على رأسي، ودخلتُ في الخمسين من عمري، أصبح لقبي «الست الحجّة» وأنا في داخلي لا أحسُّ بتطور العمر وتقدمه.. وإذا كان لقب «الحاج «مهماً عند الكثيرين من سكان فلسطين والأردن والبلاد العربية والإسلامية، إلا أن «الحاجة» أو «ستي الحجّة» ليسَ بهذا القبول عند السيدات..

المهم أن رحلة الحج بالنسبة لي كانت أهم الرحلات التي قمت بها في حياتي.. إنها رحلة مقدّسة، تتقرب فيها إلى الله سبحانه وتعالى، وتلتقي بها بحبيبه وحبيبنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.. تقابل أبا بكر وترى دموعه وحنانه، ترى عمر بن الخطاب وتحسّ بدرّته، أوعصاه يضرب بها ظهر من عصى.. تذكر عثمان بن عفان وترى لحيته البيضاء وقد خضّبها الدم الأحمر القاني.. تكاد تشاهد فصول معركة أحد، وتسمع صهيل خيل خالد بن الوليد تستديرُ خلف الجبل، وتوقع بالمسلمين.. تتنفس عبير فاطمة الزهراء وعائشة بنت أبي بكر.. يتدفق أمامك وحولك وخلفك ومن كل جانب كل تاريخ صدر الإسلام العظيم..

تكاد ترى علياً بن أبي طالب نائماً في فراش الرسول، مضحيّاً بنفسه لينجو الرسول عليه الصلاة والسلام من سيوف العرب المشركين.. كل ذرة رمل تحمل ذكرى هذا التاريخ العظيم، وإذا دخلتَ الكعبة أصابتك رجفةً قويةً تهزك من أعماقك، فتحسُّ بالقوة والعزّة والكرامة.. وإذا دخلت قبرَ الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة ملأتك الرحمة، والذلّ من الرحمة وغمرتْ وجهك الدموع دون توقف.. أحاسيس مختلفة لا أملك أن أصفها، تملأ نفسك في كل حين ومعَ كل موقف..

وتذكر هناك المسجد الأقصى في القدس، فيدق قلبك ولا يتوقف.. تمتد الصلات ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، حتى لتحسّ أن المسلم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذين المسجدين والمسجد النبوي.. كيف لا وقد كان على كل مسلم أن يقدّس حجته بعد الحج، بزيارة المسجد الأقصى.. كيف لا وابن بطوطه ومسلمو المغرب العربي أقاموا العمران وسكنوا المسجد الأقصى بعد رحلتهم إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج؟ كيف لا والمسجد الأقصى أولى القبلتين ودرّة الفتح الإسلامي في عهد عمر، وخلود صلاح الدين الأيوبي في حروبه مع الصليبيين وتاريخ طويل طويل لا تكفيه آلاف الصفحات..

في الحج، والحج عَرَفة، تقف بين يدي الله عز وجل تدعو وتدعو وتدعو.. تذكرُ كل أهلك وأقاربك ومعارفك وجيرانك، فتدعو لهم بالخير والبركات ما يسّره الله لك.. وتذكرُ وطنك الذي تعيشُ فيه، ووطنك العربي الذي تنتمي إليه، والعمق الإسلامي الذي تفخرُ به، فتدعو لكل هؤلاء بالازدهار والتقدم والنجاح.. وتدعو للإنسان بإنسانيته الواسعة أن يهديه الله ويبعد عنه الكفر والفسوق والعصيان.. تجلس إلى قرب المرأة المصرية فيشدّك الحنين إلى مصر. تستمع إلى المرأة المغربية،

فتتمنى لها العزة والنصر، ترى المرأة الماليزية، فتحمدُ الله على تقدمها ونظافتها وطهارتها، ولكن قلبك يظلُّ جريحاً مع المرأةِ الفلسطينية وجرحها الكبير في احتلال أرضها وهدم بيوتها وأسر أبنائها.. عندها تترك ما عداها من أمور شخصية، وتتجه بقلبك وجوارحك للدعاء لنصرة الأقصى وزوال الاحتلال..

وما ذلك على الله بعزيز..

ومع ذلك.. فالحج تسهيلٌ من رب العباد لمن استطاع إليه سبيلا.. وقد استطعت الحج والحمدُ لله، وكنتُ لا زلت في عز الصبا، في الثلاثين من عمري.. يومها أحسستُ أن من الأفضل أن يحج المرء وهو بعد في عمر الشباب، ففي الحج مشقّة وتعب.. فلماذا نؤجلها إلى سن الكهولة والهرم..

وأهلاً «بستي الحجّه «حتى لو كانت مبكرة !!.

مع أختيّ إزدهار وانتصار

تشعُّ الفرح من حولها.. تملأ المجلس الذي هي فيه بالسعادة والحبور.. تتحدّث عن الماضي وكأنها تراه اليوم، وبالألوان. تتحدث عن الحاضر فلا تترك منه شاردة أو واردة.. هي التي كانت تنقل نشرة أخبار محطة الإذاعة البريطانية BBC لاحقاً إلى الأهل في بداية هجرتهم من فلسطين... تصعدُ إلى منطقة جبلية قريبة، وتحكُّ حجرين صوانين ببعضهما وتصلهما بسلك معدني، فتسمع المحطة البريطانية، وتحفظ نشرة الأخبار فيها، فتعود إلى المنزل تعيد النشرة كما هي على مسامع والديها وإخوتها، ثم تنقلها للاجئين المنتشرين في ساحة المنزل..

تلك هي أختي إزدهار. يفصلني عنها بالعمر حوالى ثلاثة عشر عاماً، كانوا يعقدون الشّبه بيني وبينها فيقولون أنني أشبهها.. وكانت جميلة الجميلات بشعرها السميك الذي يصل إلى وسط ظهرها، وعينيها الزرقاوين، وبياض بشرتها المائل إلى الحمرة الخفيفة..

وعندما هاجرت العائلة من فلسطين، ظلّت أختي إزدهار تذكر تفاصيل الهجرة خطوة بخطوة، ونحن نستمع لها ونحفظ ما تقول؛ الشاحنة التي صعدوا على ظهرها هي وأخواتها الصغيرات، يدعمن الأثاث حتى لا يسقط عن ظهر الشاحنة في الطريق من الرملة إلى رام الله... برد عمان القارص في أوائل الخمسينيات واضطرارها هي

وأخواتي الأصغر منها إلى حمل الحليب إلى بيتنا في آخر شارع السلط والذي يسمى اليوم العبدلي.

تذكر ذهابها هي وأختي الأكبر منها «كاملة» إلى معلمة الخياطة الأشهر في عمان «زينب العقروق» كي تتعلم الخياطة وتساعد في خياطة ملابس البنات السبعة في المنزل.. ولمّا برعت في ذلك اخاطت بدلة العرس لأختها كاملة !!

ذهابها وأخواتها الأصغر لتسجلهن في المدارس الابتدائية في عمان رغم صغر سنّهن، وبراعتها في إقناع المديرة بذلك.

قصصها عن العائلة لا تنتهي.. ذكرياتها عن مولد الأخ الأول للعائلة «محمد» بعد ست بنات، كررتها أمامنا وبالألوان عشرات المرات.. حلاقة شعره في المسجد الإبراهيمي في مدينة الخليل في فلسطين، حفلة طهوره في يافا، رحلات العائلة الصيفية إلى مصيف يافا الجميل روبين حيث الرمل الناعم والأمسيات الرائعات.. قصص لا تنتهي.

وعندما كبرتُ، وتزوجتُ، وسكنتُ في منزلي في عبدون في عمان، عادت أختي إزدهار إلى عمان بعد أن أمضت قرابة نصف قرن في الكويت حيث يعمل زوجها، وسكنت في عبدون أيضاً، قربي. وتوطّدت العلاقة معي وأصبحنا نتقابل أو نتهاتف يومياً..

أقول لها : هذا الكتاب أعجبني، هل قرأتيه؟
. نعم وأجمل ما فيه كذا وكذا.. تعيد علي الكتاب بأكمله..
وأقول : هذا البرنامج التلفزيوني هل شاهدتيه؟

. نعم وبه كذا وكذا..وتعيد معظم ما جاء في البرنامج.
وقد أقول : اليوم توفي فلان.. هل ترغبين في تعزيتهم؟
. نعم وسنذهب الساعة كذا فلا تنسي الإيشارب الأبيض..

فلانة تزوجت، وفلانة رزقت بولد، وآخر تخرج من الجامعة. قصص تربط الحاضر بالماضي، وتملا المجلس سعادةً حبوراً، وأنا سعيدة بجوارها وعقلها الناضج وذكرياتها التي لا تنتهي، بل لقد تعوّدت أن أعرض عليها كتاباتي وهي بعد مخطوطات.. فتقرأ وتعلّق وكأنها أستاذ في اللغة أو الآداب أو التاريخ.

في مدارس المنهل، عملتُ وبقرب مع أختيّ : انتصار أولاً ثم ازدهار.. كانت انتصار ومنذ طفولتي رمزاً للوطنية والعمل الإيجابي.. تخيط تنورة فترسم عليها خارطة الوطن العربي الكبير ثم تطرزها بألوان العلم لتؤكد على وحدة هذا الوطن... تمنع طالباتها من استخدام المواد العطرية المستوردة من الخارج وتؤكد عليهن، قولاً وعملاً، مبدأ دعم الصناعة المحلية والعربية، تخرج مع المظاهرات ضد الاستعمار ومع القضايا العربية فتسجن، ولّما تخرج من السجن تخرج مرفوعة الهامة وأكثر إيماناً بقضايا أمتها. صاحبة مبدأ، لا تخاف لومة لائم ولا تتداعى أمام المحبطين أو الخونة.

ولّما عملتُ معها في جمعية أصدقاء الأطفال ثم في مدارس المنهل ثم في كل عمل عام آمنّا به، أحسستُ بصدقها وإيجابيتها ومتابعتها للعمل الخاص والعام. بل إنها نسجت خطاً ناجحاً : العمل الخاص مع العمل العام، فساعدت المرأة الأقل حظاً وشجعتها على العمل اليدوي والتطريز الشعبي لزيادة دخلها ودعم أسرتها، وكرّست جلّ اهتماماتها لدعم دار

الطفل العربي في القدس وجمعيات القدس التي تحتاج للدعم المادي والمعنوي، وافتتحت مركزاً خاصاً خيرياً للأطفال واليافعين.

كانت وستبقى أختي انتصار الرمز الأوضح للوطنية، والإخلاص والإيجابية في العمل.

مع أخويّ خليل ومحمود

كنتُ يوماً مع امرأة إنجليزية، يشغل زوجها منصباً إدارياً في شركة إنجليزية أردنية، أسسها زوجي للمقاولات، حيث عملت تلك الشركة في السعودية والأردن في بناء شوارع وطرق وتجمعات سكنية، وعديد من المشاريع الكبيرة.

أقول كنت مع هذه المرأة الإنجليزية، أشرح لها وببساطة عن عاداتنا وتقاليدنا نحن العرب، وأسرتي كمثال.. ووجدتني أقول إنني واحدة من عشرة أبناء وبنات لوالدي، وزوجي واحد من ثمانية إخوة وأخوات لوالديه، وكل من هؤلاء الأبناء الثمانية عشر له عائلة وأبناء وأنسباء وأصهار وأبناء أعمام وأخوال، والعلاقات الأسرية محط احترام، بل واجب ديني أولاً، ثم بالعرف والعادة ثانياً. وعلى الواحد أن يفرح لأفراحهم، ويحزن لأحزانهم، ويشاركهم في العديد من المواقف التي قد تستنزف جزءاً كبيراً من وقته الخاص، وشؤونه الشخصية.

ووجدتني أستعرض العلاقات الأسرية في بلادنا العربية، وفي عائلاتنا تحديداً، وأرى إيجابيات الأمر وسلبياته، فإذا كان الفلاح يعتزّ بعدد أبنائه لمساعدته في فلاحة الأرض وزراعتها، وقطف الثمار، فالمدني لن يحتاجهم لذلك، بل هم الذين يحتاجون

للدعم المادي من الوالد كي يكملوا دراستهم وتحصيلهم الجامعي، وستأخذهم مدّة اطول كي يقفوا وحدهم على أرجلهم دون الحاجة لمساعدة الأب.

والحقّ أن هذه المرأة الإنجليزية وعدد آخر من الإنجليز رجالاً ونساءً من الذين تعاملتُ معهم حسب عمل زوجي، قد أثبتوا لي أن هناك عائلات إنجليزية مترابطة كما نحن، بل أكثر ترابطاً.. وأنهم يحملون قيماً وأخلاقاً يتمنى المرء في كثير من الأحيان أن يتعلمها منهم. فهم يطبّقون فعلاً لا قولاً تعاليم الإسلام، بينما يتغنى البعض عندنا بهذه التعليمات قولاً لا فعلاً.

ولولا السياسة التي على قمتها معاهدات «سايكس بيكو» و «وعد بلفور» لكانت علاقتنا مع الغرب أفضل مما هي عليه الآن.

المهم إن إخوتي الثلاثة محمد وخليل ومحمود أتيح لهم المجال ليدرسوا ثم يعملوا في إنجلترا..

أما أخي خليل فبعد وفاة والدنا، والأخ الأكبر، أصبح هو بمثابة الأب للعائلة، ورغم أنه أصغر من كل البنات. بما فيهم أنا. إلا أنه أصبح الأب والأخ لنا.. لا أسمع ألطف منه وهو يناديني «بأختي الصغرى»، ولا ألطف من تصريحاته أنه يحب أخواته كلهن ويحرص على إرضائهن وإسعادهن... لقد كان لتربيته الدينية الأثر المباشر لحسن أخلاقه وطيب معشره، أبقاه الله لأسرته.

ولّما كانت رسالة الدكتوراة لأخي محمود حول المواد المستخرجة من النفط كالكيروسين و الديزل والاسفلت والزفتة وعشرات غيرها، فقد فكّر بإنشاء مصفاة للبترول في غزّة.. وبدأ بإجراء الاتصالات اللازمة لذلك.. وأولها توفير رأس المال. واستعدّ الجميع من العائلة والأبناء والأصهار لمساندته، ومساندة الوطن في مثل هذا المشروع الكبير..

ومع أن الرياح لم تأتِ كما تشتهي السفن، ولأن وضع غزة كما يعرف الجميع أكثر تعقيداً من الحياة ذاتها، فقد توقف المشروع، وخسرنا المال بينما ربحنا، إن شاء الله تعالى، ثواب العمل..

وقد طلبتُ من أخي محمود أن يكتب مقدمة كتابي للأطفال «الملثم وجريمة الأحد الأسود» من قصص الانتفاضة في غزة والصادر عام ١٩٩٣ فكتب يقول :

«أحبائي أطفال العروبة والإسلام.. أحبائي أبناء غزة الأبطال..

كاتبتنا شقيقتي روضة، عاشت منذ طفولتها تحلم بكل ما تحلمون به أنتم الآن؛ من عيش كريم وتحرر وكرامة. لقد شاركت روضة بالجهاد مثلكم تماماً في مظاهرات شوارع مدينة رام الله وعمّان وأثناء دراستها في القاهرة، وفي كتاباتها بعمّان وبمعارض كتبها في أنحاء الوطن العربي والإسلامي. تشحذ الهمم لتبقي شعلة الأمل مضيئة، إنها ونحن معها، بكم واثقون وبالله مؤمنون أن النصر آتٍ من عنده.

أبناء وطننا الأسير في غزة، حجارتكم، جوعكم، ثباتكم، أمراضكم، صمودكم، جروحكم، إيمانكم، كلها مصادر إلهام وعزّة للنفس الذليلة خارج أرض المجابهة. لقد أصبحنا في وقت أصعب ما فيه هو الحفاظ على المبادئ التي نؤمن بها والإسلام الذي ننتمي إليه..

صبراً آل غزة هاشم فلا شك أن موعدكم الجنة والنصر.. ساعدونا بثباتكم وشدّوا من هممنا بتضحياتكم وإننا بالله مؤمنون.»

دبي ١٩٩٣/٧/٢٧
الدكتور محمود فهيم الفرخ

رابطة الكتاب الأردنيين

أمضيتُ عدة دورات انتخابية عضواً في الهيئة الإدارية لرابطة الكتاب الأردنيين، وكانت نتائج فرز الأصوات تثلج صدري حين أفوز بثقة الزملاء الأعضاء، وقد عملتُ مع رؤساء عديدين للرابطة منهم الكاتب «فخري قعوار»، والكاتب «ابراهيم العبسي» والدكتور «أحمد ماضي» والدكتور «موفق محادين».

مدة الدورة الانتخابية للرابطة سنتان، ويمكن للعضو شغل المنصب دورتين متتاليين، يغيب بعدها دورة كاملة، ثم يستطيع بعدها الترشح لدورتين أخريين، وهذا النظام أوقف استمرار عضوية المرشحين إلى مالا نهاية، فغيابهُ عن المشهد دورة كاملة، يهيء الفرصة لزملاء آخرين لاعتلاء المنصب وإثبات جدارتهم.

وفي انتخابات الرابطة، يسيطر «التحزب» السياسي على المناخ بشكل غريب.. فهذا حزب البعث، وذلك الجبهة الشعبية، وغيرهم الحزب القومي، وآخرون الشيوعيون..

وتبدأ السجالات والسهرات والاجتماعات. كل مجموعة تجنّد كافة قواها: إن من داخل الرابطة أو خارجها، للفوز. بل إن بعض الجهات الأمنية في الدولة، تتدخل بشكل مباشر وغير مباشر في هذه الانتخابات،

ولا يكون للأدب والإبداع الدور الأكبر في التحالفات، ويبدأ القصف العشوائي والمنظم، من كل تيار على الآخر، فهذا مع التطبيع ونحن ضد التطبيع، وهذا مع أوسلو ونحن ضد أوسلو، وذلك مع المخابرات ونحن مع الديموقراطية والحرية.. شعارات لاستقطاب أعضاء الهيئة العامة الذين يصل عددهم إلى ستمائة عضو.

إنها «معركة الانتخابات» ليس إلا..

في الدورة الأخيرة ٢٠١٢ م، اضطررتُ للاستقالة مع أربعة من زملائي كموقف صلب أمام انفراد رئيس الرابطة باتخاذ القرارات وإصدار البيانات وإرسال الرسائل، دون الرجوع للهيئة الإدارية. فأنا أؤمن إيماناً أكيداً بالديموقراطية،واتخاذ القرارات بالأغلبية وعدم التفرد بالرأي، ولا أرضى أن أكون مجرد رقم في الإدارة.

صحيح أن الخلافات والاختلاف بالرأي كان يسيطر على اجتماعات الهيئة الإدارية للرابطة، نتيجة اختيار الهيئة العامة من هذه القائمة أو تلك، لكن المطلوب من الرئيس دوماً أن يحاول أخذ القرارات بالحوار الديمقراطي والأغلبية وليس بالتفرد بالرأي..

وفي إحدى الدورات الانتخابية، وبعد قراءتي للمشهد الانتخابي الحزبي والمتعصّب لهذه الفئة أو تلك، قررتُ الترشح لرئاسة الرابطة.. وفعلاً خضتُ التجربة أمام الزميلين المحترمين «فخري قعوار» و«ابراهيم العبسي»، وبالطبع لم أفزْ بالانتخابات، وكان الفارق أيضاً بين المرشحين الآخرين قليلاً جداً..

كثيرة هي المواقف الإيجابية والسلبية في الرابطة. وأكثر القضايا إثارة للمشاكل المواقف السياسية. تلك المواقف التي ترتبط بما هو خارج الرابطة وخارج القطر الأردني، وأعتقد أن موقفي المبدئي من التطبيع مع العدو الإسرائيلي كان السبب في ترجيح كفّة فصل عضويّة أحد الزملاء الكتاب في الرابطة، حين أقرّ التطبيع بتصريحاته وزياراته للكيان الصهيوني.

وأعتقد أنني سأبقى ضد التطبيع مع العدو الإسرائيلي حتى لو أصبح هناك اثنتان وعشرون اتفاقية سلام بين الدول العربية وهذا الكيان..

على مدى ما يزيد على عقد من الزمان ١٩٨٣/١٩٩٥ م تسلمت تحرير ملحق الطفل الأسبوعي في جريدة الدستور الأردنية. وكان ذلك أحد أسباب انتشاري وتأثيري وتعرف الناس على اسمي في عالم «أدب الطفل وصحافته»، كانت الجريدة يومية؛ وملحق الطفل أسبوعي يصدر مع الجريدة في يوم الجمعة.. أحياناً صفحة واحدة وأحياناً صفحتين.. يتناول فيما يتناول أخبار الأطفال وإبداعاتهم وصورهم، وما يرسلون من مواد سواء من إنتاجهم أو اختيارهم نقلاً عن مصادر أخرى. وكنتُ أكتب الكلمة الموجهة في العمود الأسبوعي لهم، وأكتب قصّة العدد المسلسلة في كثير من الأحيان.

وكم استفدتُ شخصياً من هذه القصص المسلسلة، حيث كانت مادة أساسية لبعض الكتب الصادرة لاحقاً، مثل قصة «الملثم وجريمة الأحد الأسود» عن الانتفاضة في غزة، وقصة «ليلى وفرن الصمود» عن الانتفاضة في نابلس، وقصة «سر سكين عامر» عن الانتفاضة في قرية العبيدية إحدى القرى حول القدس..

كانت جريدة الدستور منارة صحافية لي للكتابة، بدأت مع ملحق الطفل الأسبوعي، ثم تطورتْ لزاوية دائمة أكتب فيها مقالات اجتماعية، وسياسية، وأدبية وغير ذلك للكبار مما زاد من انتشاري ومعرفة الناس باسمي وآرائي المختلفة. وأعتقد أن كل من تعاطى الكتابة الصحفية، كان يشعر بالسعادة التي كنتُ أستشعرها بعد نشر المقالات، وسماع آراء الناس الإيجابية، وحتى السلبية.

بعد ملحق الصحيفة اليومية، ارتبطتُ بصحافة الأطفال ومجلاتهم.. فعملتُ محررة مسؤولة مع وزارة الثقافة في مجلة وسام للأطفال، ثم مع دائرة الثقافة لأمانة عمان مجلة براعم عمان، ثم مع مجلات في القطاع الخاص ظهرت ثم اختفت، مثل مجلة الكرتون العربي ومجلة سامر، وراسلتُ مجلة ماجد في أبو ظبي. واتصلت مع مجلات الأطفال في مصر.

ألا ترون معي أن «حركة» ثقافة الطفل هي «حركة» مستمرة تبدأ بالأدب بأجناسه المختلفة من شعر وقصة وحكاية وأنشودة، وتهليلة.. الخ. ثم تتواصل مع المسرح المكتوب والمقدم على خشبة المسرح، ثم تنتقل إلى مجلات الأطفال وصحافتهم، لتصل إلى المراكز العلمية في الجامعات للتعليم والتحليل والنقد ثم تنتقل إلى إنشاء ودعم مراكز الأطفال وأنديتهم ومكتباتهم. وإقامة الندوات وورش العمل معهم ولهم..

«حركة» قوية تتأثر بها ومنها وسائل الإعلام المختلفة من إذاعة وتلفاز لتحرك واقع ثقافة الطفل، وترتفع به ومعه إلى آفاق أرحب، وثقافة أوسع.

مع مؤسسة عبد الحميد شومان

لم تكن علاقتي مع المرحومة «يسرى أبو عجمية» عادية، بل استثنائية، فالمرحومة يسرى كانت ذات صوت قوي جهوري، تخاطبك على الهاتف فتحس أنك أمام فتاة قوية الشخصية والمظهر، وعندما طلبت مني المساهمة في تقييم أعمال الطلاب والأطفال من الذين شاركوا و يشاركون بمسابقات مؤسسة عبد الحميد شومان للقصة القصيرة والشعر والرسم، وافقتُ بسرعة..فلمّا ذهبتُ إلى اللقاء الأول معها وجدتُ نفسي أمام إنسانة تختلف جداً عن صوتها، فقد اختبرها الله تعالى بشلل الأطفال منذ طفولتها أعاق نموها الطولي، بل وأثر على قدميها وأحنى ظهرها !!

وقلتُ لنفسي لله في خلقه شؤون وهو الحكيم العليم..

ونشأت الصداقة معها على أسس متينة من الوعي والعقل والعمل، إنسانة متفتحة للحياة معطاءة خدومة، صدوقة، تتابع كل صغيرة وكبيرة في عملها، دؤوبة تصل الليل بالنهار، تخدم أبناء منطقتها. مخيم البقعة. وتخدم مدارس الأونروا والمدارس الخاصة والحكومية، وتؤدي عملها بكل احترام في مؤسسة عبد الحميد شومان.

رحمها الله...

عندما ماتت «يسرى أبو عجمية» صلى عليها ما لايقل عن مليون حاج في الكعبة المشرّفة.. كيف؟ كانت في دعوة للحج على حساب المملكة العربية السعودية لجهودها في أحد مؤتمرات جمعية المكتبات التي كانت عضواً فيها، فلما أنهت مناسك الحج كاملة وبعد صلاة العيد فجراً، أصيبت بنوبة قلبية ففارقت الحياة وصلى عليها الحجيج كلهم!!

أليس هذا بترتيب رب العباد لرفع مقامها .إن شاء الله تعالى. عنده؟

لقد كان ليسرى أبو عجمية الفضل بتعريفي بالصديق الفاضل الأستاذ الدكتور «ربحي مصطفى عليان»، عضو جمعية المكتبات الأردنية، الأستاذ في كلية العلوم التربوية في الجامعة الأردنية، والذي أشكره من كل قلبي على منحي لقب «رائدة أدب الأطفال في الأردن» في كتابه الموسوم «أدب الأطفال» والصادر عن دار صفاء للنشر والتوزيع.

المهم أن نشاطات مؤسسة عبد الحميد شومان استمرت واستمرّ عملي التطوعي معهم في العديد من المناسبات لعلّ آخرها دعوتي للمشاركة في لجنة جائزة عبد الحميد شومان، لأدب الطفل مع الدكتور «راشد عيسى»، والفنانة «لينا التل» والكاتبة «وفاء القسوس» وبرئاسة العين «هيفاء النجار».

لكن موضوع كتابي للأطفال «حلم عبد الحميد شومان «الذي أصدرته عام ٢٠٠٧، لم يكن له صلة مباشرة بالمؤسسة أو البنك العربي الذي أسسه المرحوم عبد الحميد شومان في الثلاثينيات من القرن العشرين في فلسطين..

لقد قلت في مقدمة الكتاب :

«عندما بدأت قبل نيّف وثلاثين عاماً في كتابة حكاياتي البطولية للأطفال، كنتُ قد وضعتُ في خطتي أن أوثّق سير نضال أبناء الشعب العربي للأطفال.. النضال السياسي والاقتصادي والتربوي. ممثلة ببطولة رجاله ونسائه ومدنه وقراه.. وكانت سيرة «عبد الحميد شومان» من تلك الأسماء التي وضعتها ضمن القائمة، وها هو الله قد منّ عليّ بالعمر، لأعود لقراءة قصة حياة هذا الرجل «العصامي» والتي كتبها الدكتور فواز طوقان وفايز المقدسي، ولأصوغ القصّة للأطفال بما يتناسب ومستواهم الفكري واللغوي والعمري..»

وأصدرتُ الكتاب وكنتُ متأكّدة أن البنك وعائلة المرحوم المناضل عبد الحميد شومان سيشكروننني عليه، بل وسيقدمون لي جائزة أو شهادة تقدير على إصداره، ولكن الأمور السياسية وقفت أمام ذلك، فأغمضوا أعينهم عن الكتاب وتجاهلوا وجوده !!.

ففي تلك الفترة كان البنك. ولا يزال. مهدداً من الصهيونية العالمية على كافة مواقفه السياسية، إن قبل الاحتلال أو بعده.. فهو مؤسسة عربية ومالية قوية، عليها إذن دفع الثمن، وإلا اتهمت باللاسامية وبتمويل الإرهاب، وبالتالي دفع تعويضات للأهالي الذين قضوا على يد العرب كما يزعمون أنه بتمويلٍ منه !!

ورُفعت القضايا في أمريكا بمئات الملايين من الدولارات، ووقف البنك وحيداً أمام هذه اليد الصهيونية المسيطرة على الإعلام والمال في أمريكا، بل وفي العالم أجمع..

ولما كان طبع المال : الجبن، فقد كان لزاماً على البنك وبرئاسة حفيد الباني الأول . عبد الحميد شومان . أن يتخذ الحيطة ولا يتعاطى مع كتاب الأطفال هذا، الذي يبين نضال الجد ضد الاحتلال الصهيوني، وصموده في سجون الاستعمار الانجليزي ودفاعه عن سقوط فلسطين بيد الصهاينة، ودعمه للمشردين من أبنائه بعد النكبة.

هل يجبُ علينا يا ترى أن ننكر أنفسنا ونضالات آبائنا، واستشهاد إخوتنا، وأن ننسى معاناة أهلنا في فلسطين، كي نرضي المحتل؟

هل على الضحية أن يوقف دموعهُ وأنينهُ ومعاناته حتى لا ينزعج الظالم والمتكبر والمحتل؟

إنها مسألة فيها نظر !

مؤسسة نور الحسين

الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال

للملكة نور الحسين. زوجة المغفور له جلالة الملك الحسين بن طلال. دور كبير في إقامة عدد من المشاريع الخيرية والريادية في الأردن.. ومنها مؤسسة نور الحسين. وللمؤسسة نشاطات عديدة منها، وأهمها الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال التي أسستها معالي العين «إنعام المفتي» وعدد من السيدات والسادة أذكر منهم : «ساهرة النابلسي»، «بثينة جردانة»،«عصام الزواوي»، وآخرون..

ولما انضممتُ إليهم فيما بعد، تمّ انتخابي رئيسة للهيئة الإدارية للرابطة وبعضوية زميلين جديدين هما، الشاعر «علي البتيري» والقاص «أحمد جبر».

وعملنا معاً كفريق رائع لخدمة الأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة، وكان أن أصدرت الرابطة عدداً من كتب مرحلة الروضة أحدهما للشاعرة الأديبة المرحومة «شهلا الكيالي» كتاب «لعبة الحبل» والآخر لي : كتاب «الجنود والوطن».. ثم أصدرت الرابطة لي وللأستاذ طه عثمان كتاب «ثقافة الأطفال في الأردن، الكتّاب . المخرجون . الرسّامون . المؤسسات . المراكز. المكتبات. الجمعيات الخيرية »

ولكن وللأسف انتهت التجربة مع الرابطة بشكل درامي، حيث رفعت إحدى الزميلات فيها . لن أذكر اسمها . دعوى قضائية ضدّي «بالقدح والذم «بحجة أني وجهتُ لها كلاماً فيه قدح وذمّ وسبّ.. ولم يكن هذا صحيحاً بالطبع. لكنها النفوس البشرية !!

كانت أول مرّة لي أقف فيها في محكمة في قضية «الحق الشخصي» وكنت أحسّ بالألم العميق مقروناً بالخوف الشديد من الوقوف أمام قاضٍ ومحامين ومحكمة، التصقت . في عقولنا. بالمجرمين واللصوص والقتلة.

ولكن الله قيّض لي في نفس الوقت، ومن نفس الهيئة الإدارية للرابطة الزملاء والزميلات «على البتيري» و«ساهرة النابلسي» و«بثينة جردانة» للدفاع عني أمام هيئة المحكمة. كانت المرحلة الأصعب هي في موافقتهم للنزول إلى المحكمة والشهادة فيها، فليس الأمر سهلاً أن يُقسم المرء على القرآن الكريم، وأمام القاضي والمحامين، لقول الحق ولا شيء غير الحق!.

ولإقناعهم استعنتُ بالآيات الكريمة : (وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)، (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) فوافق الزملاء على الحضور للمحكمة وشهدوا بعدم تلفظي بألفاظ تسيء للزميلة التي رفعت الدعوى..

وقضى العدل بالبراءة التي كانت مرتبطة، لو لا سمح الله أدنت، بدفع غرامة عشرة آلاف دينار !!

كانت المرة الأولى لي أمام محكمة، أعقبها وقوف آخر في أول أسبوع استلمتُ فيه إدارة مدارس المنهل العالمية، فلقد أقام أحد الموظفين فيها دعوى أخرى ظلماً وغيرة من دخولي المدرسة. وأيضاً تمت تبرئتي تماماً منها. وتعوّدتُ على «المحاكم» وأصبحتُ لا أخاف المثول أمام القضاة والمحامين، وأصبحتُ أحسّ أن المحكمة مثلها مثل أي دائرة حكومية أخرى، كدخول مركز صحيّ أو وزارة الصناعة والتجارة أو دائرة الأحوال المدنية.

إن القضاء العادل في البلد . أي بلد . هو المقياس الحقيقي لنزاهة الحكم ورفعة الدولة ورقي الأفراد وإلا سادت شريعة الغاب، حيث الأقوى يأكل الضعيف.

فيما أعرف اليوم، فالرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال لم تعد موجودة إلا على الورق، فالنجاح يجلب النجاح، والنزاع يؤدي إلى الفشل.

الانتخابات النيابية

في عام ٢٠٠٧، وكنت قد تجاوزت الستين من العمر، أحسست وبصدق أن بإمكاني خدمة وطني عن طريق ترشّحي وبالتالي انتخابي عضو في مجلس الأمة / النواب.

حلّلتُ تجاربي العملية في العمل العام مع إتحاد الطلبة، ورابطة الكتاب الأردنيين، وعدد من الجمعيات الخيرية، والنشاطات السياسية والحزبية والفكرية.

وقيّمتُ وضعي العائلي، أولادي والحمد لله قد تجاوزوا مرحلة الطفولة، وأصغرهم أنهى دراسته الجامعية، وأكثرهم قد تزوجوا ولهم حياتهم الخاصة مع أزواجهم وأولادهم.. وزوجي ناجح في أعماله واستثماراته، وأخواتي وإخواني سيدعمونني بالتأكيد، من خلال عائلاتهم الممتدة وأقاربهم.

وجدت في نفسي الدافعية القوية لخوض هذه التجربة لخدمة الوطن من هذا الموقع المميز والخاص للخدمة العامة.

وتحرّكتُ في عدة اتجاهات، الأولى دراسة «معارك الانتخابات» والتجارب العربية والعالمية في ذلك. واستعنت بالكتب والدراسات حول

الموضوع، فأعددتُ مكتبة خاصّة لذلك، بدءاً من تجارب زعماء أمريكا المدوّنة إلى تجارب زعماء القبائل الشفوية!!

وثانيها استشارة العائلة الأقرب فالأبعد، بل لقد أرسلتُ لما لا يقل عن مائة من معارفي وأقاربي أسألهم لو كنتُ سأرشح نفسي، وكنتَ أنتَ في دائرتي الانتخابية، فهل ستصوت لي؟

وثالثها الاتصال مع السياسيين والحزبيين في منطقتي، أستشعر منهم ردّ فعلهم على نيّتي تلك، كجارنا الصديق دولة «طاهر المصري» والسيد «عادل ارشيد» وبعض الإخوة الذين لهم دور وتجربة سابقة في إدراة الحملات الانتخابية.

وبدأت أعد ما يسمى «Action plan» خطة هذه الحملة، وما يجب أن ينفذ منها أولاً بأول، مقر الحملة الانتخابية، والتمويل، الإعلانات، اليافطات.. وغير ذلك كثير...

وعندما وصلتُ إلى التمويل قررتُ بيع أرض لي لأصرف من ثمنها على الحملة التي أجمع الجميع على ارتفاع تكاليفها.

كل هذا وغيره، وزوجي يشارك ولكن من غير حماس كبير، يسمعني أتصل وأتصل وأخبره بالآراء أولاً بأول وهو يسمع ويشارك ولكن دون إبداء الرفض أو القبول، واعتقدتُ أن سكوته علامة الرضى، فإذا قلت سيكون مدخل بيتي جزءاً أساسياً من مقري الانتخابي، حتى لا أبتعد كثيراً عن قاعدتي وهي بيتي، لم يجب، لا بالرفض ولا بالإيجاب، وإذا قلت له أنه سيدعمني معنوياً ومادياً لم يجب لا بالرفض ولا بالإيجاب..

وظللت أعتقد جازمةً أنه مؤيد لهذه الخطوة، بل يحلل أبعادها من حيث . على سبيل المثال . رأي الحركة الاسلامية مثلاً بي، رأي المخابرات والحكومة بي، رأي الأحزاب أو الناس المستقلين... الخ

وارتفعت نسبة الحماس لدي إلى مستويات عليا، وبدأتُ فعلاً أتصل بالمطابع، ومعدّي اليافطات وناصبي الخيم، وأعيّن لأبنائي ومعارفي دورهم في هذه المعركة..

وفي ذلك اليوم جاءني صوته هادئاً رزيناً بلا انفعال أو تجهم قال:
«روضة، لو قلتُ أن لك الخيار في خوض الانتخابات النيابية أو أنا فماذا تقولين؟»

وأسدلتُ الستار، وأقفلتُ الدوسيهات، وأوقفتُ كافة الاتصالات، وعدتُ إلى قواعدي باستكانة وهدوء..

هل كان في قوله رصاصة الرحمة على هذا المشروع أم قتل الطموح والأمل لديّ؟

هل كان توفيراً لمتاعب جمة أمامي للوصول إلى المقعد، أم خوفاً عليّ من متاعب أكبر بعد الوصول للمقعد؟

هل كان تكراراً لأحداث سابقة مشابهة، عندما أسدلتُ الستارة على كلية الصيدلة ثم مكتب المحاماة وأخذتُ أنقّب عن قنوات أخرى للعمل؟

على العموم لم يستمر عمل المجلس النيابي ذلك أكثر من عامين، حيث قام جلالة الملك عبد الله بحلّه، وأعيدت الانتخابات مرّة أخرى لاحقاً..

ولله الأمر من قبل ومن بعد..

الموسيقى

في كتاب «شارع الأميرات» للكاتب «جبرا ابراهيم جبرا» الفلسطيني الأصل، يركز الكاتب على إعجابه واستماعه بالموسيقار «برامز» ومعزوفاته. ولم أكن أعرف برامز من قبل، وعندما كتب «ادوارد سعيد» سيرته الذاتية في كتابه «خارج المكان»، ركز في قسم منها على إعجابه واستمتاعه بل وعزفه على البيانو لمقطوعات عالمية «لبيتهوفن» وآخرين.. وبحثتُ في جعبتي فوجدتُ أنني استمتعتُ بمقطوعات موزارت وتشايكوفسكي وبيتهوفن ولكن لمدة بسيطة.. كانت أهمها في مسرح «ألبرت هول» في لندن، وفي الساحات العامة في حدائق لندن الشهيرة، أو قاعة الأوبرا في فينا وساحاتها العامة.. ثم عدد أقل من الأشرطة الموسيقية المشتراة هناك، أي فقط في السفرات السياحية.

ووجدتُ أن ذائقتي الفنية هي للإيقاع الشرقي : للسنباطي والقصبجي ومحمد عبدالوهاب وبليغ حمدي وآل الرحباني وتحديداً لصوت أم كلثوم وعبدالحليم حافظ وفيروز، واعتقدت أن في ذلك عيباً أو قل نقصاً في الذائقة الفنية.

ولكنني أعتقد أننا نرثُ حب الإيقاع الشرقي، كما نرثُ لون بشرتنا وشكل عيوننا، ومذاق أكلاتنا الشعبية، وأن علينا أن نتمسك بعاداتنا وتقاليدنا الشرقية دون خجل، وأن نطّلع على ثقافات وحضارات الشعوب

الأخرى شرقية أو غربية، للاستفادة منها إن أمكن، وللتعرف عليها، فالحضارات تثري بعضها بعضاً، ولا تتعارض أو تتناقض أو تتصارع فيما بينها بالضرورة..

يقودني هذا للتركيز على لغتنا العربية، فالواضح أن هناك «ظاهرة» تجتاح العالم العربي، بل قل طبقة خاصة فيه، للنيل من اللغة العربية، بالابتعاد عنها والتركيز على اللغات الأخرى وأهمها الإنجليزية.. إن في العلوم أو الفن أو الأدب أو في تدريس صفوف الروضة والأساسي !! أعتقد وكما يقول ذلك المؤمنون الغيورون على لغتنا العربية وقوميتنا وعزتنا وكرامتنا، أنّ علينا الدفاع عن هذه اللغة مصدر عزتنا ولغة قرآننا..

يركّز العالم المصري الحاصل على جائزة نوبل للسلام «د.أحمد زويل» في سيرتِه الذاتية ورحلته مع العلم من جامعة الإسكندرية إلى أمريكا،على عمق انتمائه لأمته العربية والإسلامية : تاريخها، ثقافتها، حضارتها، موسيقاها، إبداعاتها الفنية والفكرية، بما فيها أغاني «أم كلثوم» و«عبد الوهاب».

أحسستُ بهذا وأكثر عندما قرأتُ كتاب «رؤيتي» «للشيخ محمد بن راشد آل مكتوم» حاكم دبي، رئيس وزراء دولة الإمارات العربية المتحدة، فهذا الرجل : الأمير والشيخ، والأسطورة العربية الأصيلة، يفخر به كل إنسان في هذا الوطن: بكلامه وشعره وثقافته، بإنجازاته وإبداعاته، بنجاحاته الاقتصادية والعمرانية والسياسية وحتى الرياضية، وأهم من كل هذا اعتزازه بلغته العربية ودينه وحضارته الإسلامية.

كم حرصتُ على اقتناء كتابه، وكم تمنيتُ أن يقرأ سيرته حكام الدول العربية وأمراؤها وأبناء الشعب العربي صغيراً وكبيراً..

فالنجاح يؤدي إلى النجاح..

وازدهار أي قطر عربي هو ازدهارٌ لأمتنا العربية الواحدة.

مشروع التوأمة

مدرسة المنهل ومدرسة القسطينة نموذجاً

لم يكد الهجوم البربري والوحشي على غزة يتوقف، حتى بدأت غزة تعدّ خسائرها وتلملم جراحها، وتداوي مرضاها وتدفن شهداءها.. كانت الصواريخ وقنابل «النابالم» والقنابل «الفسفورية» على شاشات التلفزيونات من أقصى العالم إلى أقصاه.

وكنا متسمّرين نتابع، نقرض أظافرنا ثم ننام ونصحو، ثم نأكل و نقرض «اللب» للتسلية. وهكذا..

هكذا نحن وما باليد حيلة. قبلها تابعنا قصف بغداد بالصواريخ والقنابل، وكنا لفرط ارتفاع الضغط في عروقنا، ولطول جلوسنا على المقاعد أمام شاشة التلفاز، كنا نتسلى بلعب «ورق الشدة»، علّها تخفف من وطأة الأحداث على نفوسنا.

هكذا نحن.. وما باليد حيلة، عندما دكّت اسرائيل لبنان بجنوبه وشماله وجسوره وطرقاته.. أقصى ما كنا نفعل هو أن نلعنها بالليل والنهار، بالسّر والعلن، على تحطيم ما بنته سواعدنا العربية في سنين، لتهدمه في لحظات..

المهم أنه بعد انتهاء العدوان على غزة، قررنا دعم مدرسة من المدارس فيها.. كنتُ دائماً أقول لولا الدعم العربي والفلسطيني للفلسطينيين، من خلال مؤسسات ثقافية و عمّالية و نقابيّة، ولولا دعم الأطباء للأطباء، والعمّال للعمّال والعائلات للعائلات، لما استطاع الفلسطيني الصمود على أرضه، فالدعم قد يوقف هنا أو هناك، أو يسرق من هنا أو هناك، أو يصادر من هذه الجهة أو تلك، عندها يبقى جزء ولو بسيط، لاستمرار البقاء والصمود.

وقررنا أن نبحث عن مدرسة محتاجة، فكانت مدرسة القسطينة في شمال القطاع، مديرها قريب إحدى صديقاتي العزيزات «فائقة أبو خضرة». وبدأ التواصل وأعلنّا عن بدء المشروع في احتفال في مبنى مجمّع النقابات، مع اتصال هاتفي مباشر مع غزة، تم فيه التعرف على حجم الدمار ووضع أولوية التوأمة والدعم: بناء المهدوم من الجدران، تأثيث المكسور من الأثاث، تعويض بعض أجهزة الكمبيوتر في المدرسة.. ثم مواصلة التوأمة بإنشاء فرقة «الانتصار» الرياضي وفريق «الروض» الكشفي، عززها زيارة مدير المدرسة لعمّان، بتقديم عرض حاسوبي رائع لهذه التجربة الفريدة.

سعيدة أنا اليوم بهذا العمل. قد لايكون بتبرع رجل أعمال مليونير للمشروع، ولكنه عمل مستمرّ متواصل كما قال خير الأنام: «قليلٌ دائم خير من كثير منقطع»

الفضل في المشروع لله تعالى أولاً، ثم لمدرسة المنهل ثانياً، ثم لأختي انتصار ولي في الاستمرار.

والأهم لمتابعة مديريْ مدرسة القسطينة : «محمد نمر حسونة» . الذي لم نقابله بعد . لصعوبة التنقل من وإلى غزة المحاصرة. ثم المدير «اسماعيل رمضان» الذي تمكن من الحضور إلى عمان مرة واحدة وزارنا في المدرسة ليقدّم لنا ملفات المشروع في صور.

الأبناء والأحفاد

بعد عام ١٩٦٧ لم يكن سهلاً على والدتي البقاء في رام الله وقد احتلها الصهاينة، فانقطعت بها سبل الاتصال مع كل أبنائها وبناتها «العشرة». كلٌّ في قطر عربي مختلف، لذا حسمت أمرها وقررت الرحيل إلى عمّان، وكان ثمن ذلك كبيراً.

لم تكن تدري وهي تحزم أثاثها أنها ستخسر رغماً عنها كرتونة واحدة، فيها كل الأوراق الوثائقية التي تثبت ملكيّة عائلتها لأراضي في فلسطين ويافا، أخذها الجنود الإسرائيليون من بين الأثاث، رغم كل التصاريح الرسمية بالموافقة على سفرها مع الأثاث.. كنتُ قد ذكرتُ تلك الحادثة بالتفصيل في الجزء الأول من هذه السيرة. اليافاوية. بما فيها من ألم لفقدان سندات الأراضي والكواشين وأوراق الوقف العائلي الذي يثبت ملكيّتنا لأراضينا الفلسطينية.

فلماّ استقرت والدتي في عمان، حضرت ولاداتي لأولادي كلهم:

«خالد» بكر أبنائي، ولد عام ١٩٦٨ وتعلم في مدارس عمان ثم التحق بالجامعة في مدينة بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية ليتخرج منها مهندساً مدنياً ثم تزوج من الآنسة هناء علي عتيقة لينجب منها. والحمد لله. بنتين وولد. ياسمين، حسام، ليلى..

أما ولادتي الثانية فكانت لابنتي شادن المولودة عام ١٩٧٢ والتي درست في عمان وأكملت شهادتها الجامعية في كلية الصيدلة من الجامعة الأردنية، ولما تزوجت ابن عمتها؛ طبيب العيون الدكتور حسام محمود مراد، سكنت الإسكندرية في جمهورية مصر العربية، ونالت شهادة MBA من الكلية البحرية هناك.. ثم أنجبت أربع أولاد. ثلاثة ذكور: محمود، عبدالله، علي، وبنتاً واحدة هي ندى.

أما ابني الثالث فهو وليد.. ولد في عمان عام ١٩٧٣م، ودرس في مدارسها، ثم التحق بجامعة «ماساشوستس» في بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية تخصص مهندس سيارات.. ثم تزوج الآنسة «رزان علي الصابر» وأنجب منها بنتاً وولداً. تالية ويوسف.

عمر كان رابع أبنائي، ولد عام ١٩٧٦ ودرس الحقوق في بريطانيا، ونال شهادة الماجستير في الحقوق من بريستول هناك.. ثم تزوج الآنسة رنا أبو سماحة، وأنجب منها ولدين ذكور طلال وهاشم.

وإذا كانت العائلات العربية وغير العربية . كما أعتقد . تحب الذكور من الأبناء، فهي أيضاً تحب أن يكون للابنة أخت.. وفي سبيل تحقيق ذلك أنجبتُ الطفل الخامس عام ١٩٨١، وكان «صلاح الدين» درس في عمان أيضاً ثم التحق بجامعات بريطانيا ليدرس إدارة الأعمال، ولحين كتابة هذه السطور لم يتزوج بعد..

كل من سيقرأ الكتاب وله أحفاد، سيكون قد عرف وأحسّ وخبرَ طعم السعادة التي يعطينا إياها الأحفاد، إنّهم متعة الحياة عند الكبر، هم البراءة والحبّ والامتداد والمستقبل والأمل.. هم زينة الحياة الدنيا حقاً..

زيارة البلاد

ما الذي يجعل معظم سكان يافا يتشاركون في ذكريات متشابهة عندما يتحدثون عنها؟

ما الذي يجعلهم يحسّون بالأحاسيس المتقاربة والمتشابهة عندما يقومون بزيارتها، بعد غياب خمسين عاماً أو يزيد؟

ما الذي يجعل أحفادهم يحنون لزيارتها وإعادة الذكريات التي حدثهم عنها آباؤهم وأجدادهم؟

غريبة مدينة يافا.. تدخل مسامات الجسد، ولا تخرج منها.. تدخل مع الروح ولا تغادر، تعشعش في العقول والقلوب، ولا ترضى بدلاً عنها !!

تلك عصبية قبلية فليسامحنا الله عليها !!

أما أنا فلقد عرفتُ يافا من ذكريات أهلي عنها، ودخلتها عام ١٩٩٧ مرة واحدة لم تتكرر بعد !!

وعدت إلى كتابي «خمسون عاماً على فراقها «فاخترت منه ما يلي:
«عندما عدتُ لزيارة يافا لأول مرّة بعد خمسين عاماً؛ لم أشأ أن

أدخلها مع أحد، كان الساحل الفلسطيني على يمين السيارة هبوطاً إليها من طريق القدس إلى تل أبيب إلى يافا.. تراءى لي البحر الأبيض وكأنني أرى الماء لأول مرة.. سكتُّ، صممتُ أذنيّ لم أعد أسمع أو أرى أو أكلّم أحداً.. وتعالت الأصوات في داخلي تصرخ بي.. كيف تركتها طول هذه المدة؟ كيف غبتِ عنها طول هذه السنين؟ كلُّ الاشعار التي حفظتها عن الوطن وعن يافا تلوتُها في صدري وكأنني في محرابٍ مقدّسٍ.

وتذكّرتُ والدي، وكان قد تُوفي منذ مدّة طويلة.. تذكرته وهو يحدّثني عن يافا صباح مساء، تذكّرته وهو يتحدث عن البيارة والتفاح والبنات والأولاد فرددتُ معه :

يا والدي.. أما بقيتَ مشرّداً فأدفن بيافا ثم بعض عظامي.
فلعلني بعد الممات أزورها فيطيب فيها مرقدي ومقامي.

وملأت الحسرة قلبي وذرفت الدمع بصمت، فوالدي لم يعد ليافا بعد أن تركها ولم تدفن عظامه فيها.. ولابد أنه حتى في مماته يحنّ إليها.

مشت السيارة وأولادي يتحدثون.. آه لو يصمت الجميع الجميع آه لو يتركونني أناجي البحر وحدي.. وأدخل يافا وحدي..

قالوا : هذه «تل أبيب» فزاد الدمع في مآقي.. ها هي المدينة التي أنشأها اليهود شمال يافا وعلى بعد مرمى حجر منها.. ما أبشعها من مدينة !! بيوتها عمارات عالية متشابهة لا جمال فيها ولا إنسانية.. شوارعها مزعجة والأكثر إزعاجاً كل هذه العبارات العبرية على أرضي العربية !!

عرفتُ من السيارة حدود يافا.. ولم أستطع الصبر أكثر، صرخت .أنزلوني هنا.. أوقفوا السيارة.. أنزلوني هنا..

لم أكن أريد أن يشاركني أحدٌ الدخول إلى يافا. احترَموا إرادتي.. أنزلوني ومشيتُ وحيدة..

لو كنت أعرفها حقاً أو شاهدتها فعلاً لجهلتها الآن، ولكنني أعرفها حتى لو لم أشاهدها.. تلك هي تلّة المدفع.. وذلك هو الرصيف.. هو ذا جامع يافا الكبير، وتلك قهوة البحّارة.. هي ذي طيور النورس منذ بدء الخلق وإلى نهايته تتحدث عن المأساة التي عاشتها يافا تحت حكم الإنجليز واليهود.. وتلك أسماك البحر تحنّ إلى أقدامنا وترجو لقاءنا.. كلُّ بيتٍ في يافا هو بيت أبي.. وكل شجرة برتقال هي شجرة أهلي.. بيت عمي الذي نسفه الإنجليز في يافا القديمة رأيته بأمِّ عيني.. مدرسة أخواتي أحسست بجرسها يقرعُ ويرنُّ في أذني.. روح «سامي الأصفر» والشهداء أحسستُ بها ترفرف فوق «أبو كبير والعجمي».

وعندما دخلتُ حيفا عرفتُها من كتاباتي عنها.. فلقد استشهدَ على أرض حيفا الشهيد الأردني «محمد حمد الحنيطي» عام ١٩٤٨، وهو يحمل شحنة أسلحة للمجاهدين الفلسطينيين.. كان الشهيد قد ترك صفوف الجيش الأردني لأن «كلوب باشا» الانجليزي يرأسه، ويمنع على أفراده مساعدة المجاهدين لحماية أرض فلسطين من التهويد، فقام هو بالانضمام لصفوف المجاهدين، علّه ينقذ هذه الأرض العربية المسلمة من براثن الاستعمار الانجليزي والاحتلال الاسرائيلي.

ولما حمل شحنة الأسلحة من بيروت قاصداً حيفا، عَلِم أحد الجواسيس الإنجليز ذلك من موقعه في رأس الناقورة على الحدود اللبنانية الفلسطينية، فأبلغ اليهود بذلك، ووقفوا له ولشحنته بالمرصاد في حيفا.

القصة الكاملة كانت في كتابي «قافلة الفداء» وقد كانت دليلي في حيفا الجميلة الرائعة التي شهدت استشهاده مع زملائه الفلسطينيين، وقفتُ في إحدى الكازيات في حيفا انتظاراً لمقابلة كاتب الأطفال العربي «محمد بدارنة»، والذي كنتُ قد التقيته في أحد مؤتمرات أدب الأطفال في القاهرة.

عندما قابلته أول مرّة في القاهرة، كنتُ كمن يقابل سكان أهل الكهف، لا يدري كيف سيكون شكلهم وحديثهم وتفكيرهم.. أول لقاء مع وفد من سكان عرب فلسطين التاريخية لعام ١٩٤٨، فهل يكون لقاؤهم طبيعياً؟ ومن هم؟ وما هو تفكيرهم؟؟

وبعد المعرفة، زالت كل المخاوف، وثبتَ لنا أن عرب فلسطين التاريخية هم أكثر وطنية من كثيرين منا..

المهم أنني وأثناء انتظاري للكاتب «محمد بدارنة» إذ بي ألمح معلماً تاريخياً، كان يرافقني في أثناء كتابتي لقصة «قافلة الفداء» عن الشهيد الأردني محمد حمد الحنيطي والشهيد الفلسطيني «سرور برهم»، إنها «مطحنة» الطحين في مدينة حيفا.

وأخذتني «المطحنة». المكان. إلى . التاريخ. وإلى النضال...

أما زيارة «عكا» فلها طعمٌ خاص، وتاريخ خاصٌ، وماضٍ خاص.. إنها عكا الجزار، وعكا نابليون بونابارت، وعكا ظاهر العمر، عكا الجمالِ والآثار والتراث..

من ياترى يفرح بنجاحات المرء أكثر؟ بكل بساطة إنها الأم...

لا زلت أذكرها تسألني، وبأسلوب تحريضي أكثر من استفهامي، لماذا لم أعد أسمع بنشاطاتك؟ أين كتاباتك؟ أين مقالاتك؟ لمَ لمْ تعودي تظهري على شاشة التلفاز في البرامج الثقافية؟..

لم تكن أمي تريدُ لي حياةً عاديّة، لا طعم فيها ولا رائحة.. ظلّت تحثّني على الإنتاج والعمل.. قالت لي يوماً : أتدرين ياروضة، كان عندنا في يافا امرأة قبرصية، تزوجت من رجل يافيّ، وكانت تحسُّ بالاغتراب عن أبناء يافا، وتسعى لإدخال الفرحة على قلوب أطفالهم، فتأخذ هدايا من كتبٍ وألعاب لاهدائها لأطفال هذه المدرسة أو تلك، فكيف بكِ وأنت تخدمين أبناء أمتك وشعبك الذي تشاطرينه لغته وأحلامه وماضيه ومستقبله؟!!

والحق أنني كنتُ دوماً أعيشُ حالتين متناقضتين ما بين فرحة الإنجاز وعجز التقصير..

وقد كانت مسيرتي كلها تحكمها بوصلة واحدة متّجهة إلى اتجاه واحد: إلى فلسطين السليبة، وعاصمتها القدس، وأهمّ مدنها يافا الحبيبة.. وكل كتاب أنجزته وكل عمل مسرحي قدّمته، وكل اشتراك في جمعية أو نادٍ أو ملتقى ثقافي أو سياسي كانت قبلته هذه القضية المركزية..

وفي بعض الأحيان كنت أخجلُ من نفسي على هذه الأنانية في حب فلسطين، من النقب وحتى رأس الناقورة، أرى خريطتها تضعها الفتيات

في سلاسل فضية وذهبية على صدورهن، فأفرح، أسمع بنجاحات شاعرها محمود درويش أو عبد الرحيم محمود فينشرح صدري، أقرأ غسان كنفاني ورواياته فأحسّه أعظم مبدع على وجه البسيطة وأتمنى أن أبدِع مثله.. أنتمي لنجاحات ناجي العلي ولسيرة عز الدين القسام وعبد الرزاق الحنيطي، وأحسّ أن علي حفظ سيرة الشهداء وكراماتهم في نفوس أبناء هذه الأمة.

وأتساءل هل هذه أنانية؟ وأين العروبة والإسلام والإنسانية العالمية التي أتغنّى بها؟

يقول «أمين معلوف» الكاتب والروائي اللبناني الأصل، والذي يعيش في فرنسا ويكتب كل رواياته بلغتها، يقول وهو يتسلم وساماً من رئيس لبنان، إن لبنان تعيشُ في خلايا جسده، وفي كتاباته، ولم ولن تؤثر الغربة في إبعاده عن لبنان.

إن الوطن، وكما يقول المغني الفلسطيني الشاب «محمد عساف»، في أغنيته الصاروخية «علّي الكوفية» الله يا حروف الوطن مثل العقد بالصدر ما أحلاه..

أعيش حب الأردن : ملكاً وأرضاً وشعباً، وأحسّ أنني أكثر أردنية من أي فتاة مولودة في البادية أو الكرك أو اربد.. وأدافع عن فلسطين أرضاً وتاريخاً ومقدّسات، حتى بعد مائة عام من العزلة والمنفى.. أردنية حتى العظم، وفلسطينية حتى نخاع العظم.. لم أصدّق يوماً أن هناك اختلافاً أو تعارضاً بين الأمرين. بل إن ذلك لا يمنع أن نمضي ساعات عمرنا نتابع ما يجري في أرض الرافدين وأرض الكنانة و سوريا وتونس وحتى

الصومال، أمة عربية واحدة من الخليج إلى المحيط، بآمال وآلام ولغة وتاريخ وحاضر ومستقبل مشترك.

أكتب في هذه الساعة من هذا الشهر، كانون الأول لعام ٢٠١٣ والثلج يملأ الشرق الأوسط بأكمله.. عاصفة ثلجية قطبيّة، أعطوها إسم «أليكسا» ملأت مدن الشرق الأوسط كله : جباله ووديانه وسهوله وقراه؛ في فلسطين، لبنان، سوريا، شمال السعودية، شرق مصر، وطبعاً تركيا والأقطار الأوروبية قبل أن تصلنا.. وكلما رأيتُ ثلجاً أبيض يملأ الدنيا، تذكّرتُ اللاجئين.. كنّا سابقاً نحزن على عائلاتنا الفلسطينية التي كانت في الخيام في لبنان وسوريا والأردن عام ١٩٤٨ عام النكبة.. ونحن نرى صورهم في موجات البرد والثلوج.. وظننا أنّ هذا المنظر لن يتكرر على الأقل في حياتنا، حيث تحسّنت أحوال كثير من الفلسطينيين وسكنوا البيوت والعمارات بل و الفلل الفخمة، سواءً في الدول العربية أو في إسبانيا وأمريكا وكندا.

ولكن اللجوء السوري اليوم إلى ذات الأقطار، يدمي القلب. فالخيام هي الخيام.. والثلوج هي الثلوج تغمر الجميع، إن في مخيم الزعتري أو مخيم مريجيب الفهود في الأردن، أو في مخيمات اللاجئين السوريين في لبنان أو تركيا.. أو حتى في أماكن هجرتهم الأبعد إلى المغرب العربي أو رومانيا.. كل هجرة مواطن من أرضه هي للعراء والبرد والبؤس والشقاء..

يذكرني هذا البرد وهذا الثلج «بناجي العلي» و «غسان كنفاني»، اللذين خبرا ثلوج جنوب لبنان وخيام اللاجئين فيها.. وعكسا تلك التجربة في أعمالهما الإبداعية في الرسم والرواية..

فهل للمآسي وصعوبة الحياة فوائد في صقل الإبداع؟.. وهل هذا «ابتلاء» بالمعنى الإيجابي للكلمة؟!!

اللهم خفف معاناة أطفالنا، وهب لهم من لدنك رحمة..

أعود لأمي فأقول إنها كانت الدافع الدائم لي لمزيد من العطاء والعمل.. كانت دائماً تقدّم هذا العمل على راحتها، فإذا كانت معي وكان عليّ إلقاء محاضرة في مدرسة أو لقاء أدبي في نادي، أو تدريس أبنائي في المنزل، فإنها وببساطة تعود لبيتها لتترك لي المجال لأداء هذا أو ذاك.. لقد ساهمت والدتي بتربية أبنائي حين غيابي عن المنزل، وتحمّلت شيطناتهم ومشاكلهم وما أكثرها في عمر الطفولة، أوخلال سفر الأبوين..

كم مرّة ضرب أحدهم الآخر، ووقفت «تفزع» بينهما، وتدافع عنهما، كم مرّة تأخّر خالد في العودة للمنزل، فبقيت مستيقظة ومشوشة حتى يعود..؟

كم قصة وحكاية حكتها لهم عن الجنيّة والغولة وست الحسن وقمر الزمان؟

عندما أرى أحفادي اليوم، أتذكرها، وأحنّ إليها.. كل حفيد عندها. وعندي اليوم . يساوي الدنيا وما فيها، وإذا تجمّعوا عندي مع آبائهم وأمهاتهم تظلّل السعادة منزلنا، ويملأ الفرح جوانحنا..

إلى اليوم، والحمد لله، لا يزال أولادي وجميع أحفادها من أبنائها العشرة، يحتفظون لوالدتي بالحب والتقدير، وإلى اليوم أحنّ إليها، وإلى خبزها وقهوتها وأردد مع الشاعر محمود درويش :

أحنُّ إلى خبزِ أمّي وقهوةِ أمّي ولمسةِ أمّي..
وتكبرُ فيَّ الطفولةُ يوماً على صدرِ يوم..
وأعشقُ عمري لأنّي إذا متُّ أخجلُ من دمعِ أمّي..

تمت
٢٠١٣/١٢/٢٣

ملحق الصور

في أواخر الخمسينيات وفي العمر 12 سنة، إلقاء
قصيدة «يافا» في مدرسة الزهراء الابتدائية في عمان.

روضة تمسح زجاج النافذة / أولى خطوات تعليم
العمل الإيجابي.

مع والدي فهيم الفرخ قبل وفاته ـ رحمه الله

في جامعة القاهرة – كلية الصيدلة عام 1964.

مع الدكتورة سهير القلماوي في القاهرة أثناء الدراسة 1965.

مع جمعية الصحة النفسية في جبل اللويبدة في عمان عام 1972.

عضوات جمعية الأسرّة البيضاء مع جلالة الملك الحسين رحمه الله في افتتاح مبنى الجمعية عام 1972.

مع ملحق الطفل في جريدة الدستور وكنت أستقبل الأطفال في مقر الجريدة.

مع الأخوات والأخوة والوالدة في عمان.

في يافا بعد فراق دام خمسين عاماً.

الوالد فهيم والوالدة هدى.

في يافا بعد فراق دام خمسين عاماً.

جلالة الملكة نور الحسين في معرض كتب الأطفال الذي أقامته جمعية أصدقاء الأطفال عام 1989.

رحلة إيران الثقافية مع الشاعر الفلسطيني سميح القاسم والشاعر ناجي علوش، في معرض الكتاب الدولي في طهران عام 1991.

تسلم درع سلاح الجو الملكي الأردني عن كتاب أسد فوق حيفا، ويظهر ابني خالد حسام الدين الهدهد عام 1983.

مع شقيقتي الراحلة رضا الفرخ في أحد نشاطات الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال عام 1992.

السيد حسام الدين الهدهد، السيدة روضة الهدهد، السيدة حياة ملحس، الدكتور عبد الرحمن ياغي رئيس رابطة الكتاب الأردنيين.

مع سمو الأمير فيصل بن الحسين في حفل تخريج الفوج الثاني من قطار المعرفة الحملة الوطنية لتشجيع القراءة عام 1997.

مع معالي العين ليلى شرف في رابطة الكتاب الأردنيين.

مع الشاعر المرحوم عبد الرحيم عمر رقم (3) يمين الصورة، والشاعر علي البتيري رقم (6).

مع النائب توجان فيصل في المركز الثقافي الملكي، وتظهر في الصورة ابنتي شادن حسام الدين الهدهد.

في التلفزيون الأردني مع سمو الأمير الحسن بن طلال.

مع المرحومة يسرى أبو عجمية، أول سطر من الأمام.

في انتخابات رابطة الكتاب الأردنيين روضة الهدهد مندوب وزارة الثقافة، ابراهيم العبسى، عبد الله رضوان، هشام غصيب، موفق محادين.

سمو الأميرة عالية الفيصل تسلم الدرع للسيد حسام الدين الهدهد لدعمه لنشاطات جمعية أصدقاء الأطفال.

مع كاتب الأطفال الكبير الاستاذ عبد التواب يوسف من مصر.

مع سمو الأميرة عالية الطباع والدكتورة المرحومة نور الدجاني ممثلة اليونسكو في أحد احتفالات الحملة الوطنية لتشجيع القراءة 2006.

مؤسسة الملكة نور الحسين؛ بعض أعضاء الرابطة الوطنية لتربية وتعليم الأطفال ومؤسسيها د. خالد الشرايري. رباب القبج، ساهرة النابلسي، روضة الفرخ الهدهد، جلالة الملكة نور الحسين، د. ابراهيم حسن، د. عودة أبو سنينة، ومعالي إنعام المفتي.

معالي د.عادل الطويسي وزير الثقافة مع رئيسة الجمعية على مدخل كلية تراسنطة في عمان بمناسبة، افتتاح مسرحية "شارع اسكندر عوض".

معالي جريس سماوي وزير الثقافة في حفل مركز الصالحات القرآني عام 2005.

مع الداعية عمرو خالد وابني وليد حسام الدين الهدهد في إحدى محاضراته في مدرسة المنهل عام 2008.

مع العين، دولة طاهر المصري في حفل تخريج طلبة مدارس المنهل 2011.

مع الأستاذ الدكتور العين طلال أبو غزالة في حفل تخريج طلبة مدارس المنهل عام 2012.

مع جلالة الملكة رانيا العبد الله في زيارتها لمقر جمعية أصدقاء الأطفال في ماركا عام 2011.

افتتاح جمعية الأسرة البيضاء.

في أحراج يعبَد

طبعة (١) عام ١٩٧٩
طبعة (٤) عام ١٩٨٧

سر القنابل الموقوتة

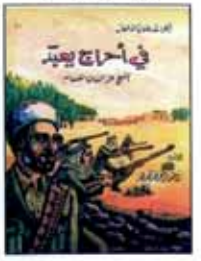

طبعة (١) عام ١٩٨٠
طبعة (٢) عام ١٩٨٧

قافلة الفداء

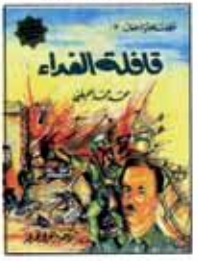

طبعة (١) عام ١٩٨٠
طبعة (٢) عام ١٩٨٧

الزمن الحزين في دير ياسين

طبعة (١) عام ١٩٨٢
طبعة (٢) عام ١٩٨٦

رحلة النضال

طبعة (١) عام ١٩٨٢
طبعة (٢) عام ١٩٨٦

منقذ القرية

طبعة (١) عام ١٩٨٢
طبعة (٢) عام ١٩٩٠

صائم في سجن عكا

طبع عام ١٩٨٣

أسد فوق حيفا

طبع عام ١٩٨٦

كفر قاسم والمحاكمة العادلة

طبع عام ١٩٨٦

لغز الأطفال والبندقية في مخيم الدهيشة

طبع عام ١٩٨٦

سر الشياطين الحمر في البيرة

طبع عام ١٩٨٧

يوم الأرض والقمح المشتعل

طبع عام ١٩٨٧

* قراصنة البحر
* سناء محيدلي

طبع عام ١٩٨٥

سر جبال أوراس جميلة بوحيرد

طبع عام ١٩٨٨

عرس الروح

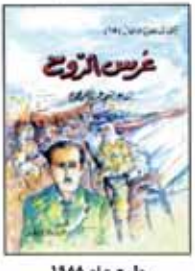

طبع عام ١٩٨٨

ليلى وفرن الصمود

طبع عام ١٩٩٠

ماكينة الخياطة ومعركة الضريبة

طبع عام ١٩٩٠

سرّ سكين عامر

طبع عام ١٩٩٠

الملثم وجريمة الأحد الأسود

طبع عام ١٩٩٣

السجين الفنان

طبع عام ١٩٩٦

مهمة في الأغوار

طبع عام ١٩٩٦

في نفق المسجد الأقصى

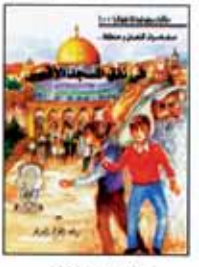

طبع عام ١٩٩٩

آيات الأخرس

طبع عام ٢٠٠٢

سلسلة « حكايات الغول » وتناسب الطلاب من الصف الثاني وحتى السادس.

ليلى والكنز

طبعة (١) عام ١٩٨٢
طبعة (٢) عام ١٩٨٦

هل يكفي الحظ؟

طبع عام ١٩٨٥

مغامرات ريّان

طبع عام ١٩٨٥

سلسلة « قصص الصحابة » وتناسب الطلاب من الصف الثالث وحتى السادس.

**أسد الله وسيد الشهداء
حمزة بن عبد المطلب**

طبع عام ١٩٩٢

**صانع السيوف
خبّاب بن الأرث**

طبع عام ١٩٩٢

سلسلة « المسرح » مسرحيات قدمت على مسارح في مدن عمان والزرقاء وقام بأدائها الأطفال من عمر ٦ سنوات إلى ١٧ سنة.

صراع في الغابة

طبع عام ١٩٩٧

سر الشياطين الحمر

طبع عام ١٩٩٧

ليلى والكنز

طبع عام ١٩٩٧

ليلى وقرن الصمود

طبع عام ١٩٩٧

حكايات كتب

طبع عام ٢٠٠٦

قصص أطفال : وتناسب الأطفال من ٨ - ١٠ سنوات.

الجنود والوطن

طبع عام ١٩٩٤

رفرفة الجناحين

طبع عام ٢٠٠٥ بدعم
من أمانة عمان الكبرى

لماذا قذيفة مدفع؟!

طبع عام ٢٠٠٥

حكايات علمية : وتناسب الطلاب من الصف الرابع وحتى العاشر.

أنا أحب البندورة .. وأنا أحب النحل الطنان

طبع عام ١٩٩٧ على
نفقة المركز الوطني
للبحوث الزراعية

رحلة قطرات الماء

قصة البيئة

طبعا عام ٢٠٠٦ على نفقة مكتب
التربية العربي لدول الخليج / الرياض

مغامرة مع الجراد

طبع عام ٢٠٠٥ على
نفقة وزارة الثقافة

صراع في الغابة
طبع عام ١٩٨٦

خمسون عاماً على فراقها
طبع عام ١٩٩٨

ثقافة الأطفال في الأردن
طبع عام ١٩٩٣

الحملة الوطنية لتشجيع القراءة
(بيبليوثراقيا كتاب الأطفال في الأردن وكتبهم)
طبع عام ٢٠٠٦